
إحسان عباس
السجين

إحسان عبد القدوس

صانع الحب



قصص

الدار المصرية اللبنانية

صانع الحب

قصص

عبد القدوس، إحسان، محمد عبد القدوس رضوان، 1919 - 1990.
صانع الحب: قصص / إحسان عبد القدوس .- ط2.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2017.
176 ص؛ 20 سم.
تدمك: 9 - 131 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية القصيرة.
أ - العنوان. 813.01
رقم الإيداع: 15129 /2017

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: ذو القعدة 1438 هـ - أغسطس 2017م
الطبعة الثانية: 2017م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

صانع الحب

قصص

إحسان عبد القدوس

الدار المصرية اللبنانية

مقدمة الطبعة الأولى

هل أنا صحفي..؟

أم أنا أديب..؟

إني عندما أكتب للصحافة يخيل إليّ أني أديب، وعندما أكتب للأدب يخيل إليّ أني صحفي!!

والصحفي حين يكتب يسرد وقائع، والأديب عندما يكتب يجنح إلى الخيال، وهذه القصص ليست وقائع ولا خيالًا، إنما هي الواقع في إطار من الخيال، أو هي الخيال في حدود الواقع، بل إني لا أحب أن أسمي هذا الكتاب «مجموعة من القصص» لأن ما فيه ينقصه الكثير من عناصر القصة، إنما هو «مجموعة من الصور» مرت أمام عيني في لمحات عابرة، ثم تركت لقلمي أن يرسمها كيفما شاء، ويضيف إليها من «المناظر» والألوان ما شاء..

وقد اخترت للكتاب عنوان: «صانع الحب» لأن كل ما فيه من حب إنما هو حب مصنوع، ومن السهل أن تصنع الحب أي أن تفتعله، ولكنه في هذه الحالة لا يدوم إلا ريثما تدير عينيك إلى الناحية الأخرى.. أما الحب بكل معانيه، الحب الذي وجد مع الحياة فأضاءها بنور الله، فقد عرفته ولكني لم أكتب عنه لأنه أقوى من قلمي..

1/1/1949

إحسان عبد القدوس

مقدمة الطبعة الثانية

ما هو الفارق بين الكاتب الصحفي، وكاتب الأدب؟

إن الكاتب الصحفي يمكن دائمًا اعتباره كاتب أدب، وكاتب الأدب عندما يسجل واقع الحياة، أو واقع تاريخ، يمكن اعتباره كاتبًا صحفيًّا..

ورغم ذلك فهناك فارق.. فارق دقيق.. كالخيط الرفيع.. هذا الفارق يتمثل في حرية الكاتب الصحفي وكاتب الأدب.. فالكاتب الصحفي أقل حرية من كاتب الأدب.. فهو - أي الكاتب الصحفي - مهما تمادى في تصوير الأحداث، ومهما استعان بأسلوب الأديب، مقيد دائمًا بالواقع.. أما كاتب الأدب فهو أقل تقيدًا بالواقع.. إنه يستطيع دائمًا أن يصور الواقع كما يتخيله لا كما يلمسه، بل يستطيع أن يستغني عن الواقع كله ويكتب خيالًا مجردًا..

فإذا وقف الكاتب الصحفي وكاتب الأدب أمام حادث واحد خرج كل منهما بقصة قد تختلف كل الاختلاف عن قصة زميله..

ولنفرض أن رجلًا ضخمًا غليظًا اسمه «عوض» قتل زوجته لأنه طالبها بنقود فامتنعت.. وبعد أن قتلها حاول أن يهرب لولا أن لحق به رجال البوليس وقبضوا عليه.

فإذا أراد الكاتب الصحفي أن يسجل هذه الحادثة فهو مقيد بالواقع.. مقيد بأن الرجل ضخم وغليظ.. وبأن اسمه عوض.. وبأنه قتل زوجته لأنها امتنعت عن إعطائه نقودًا.. وبأنه حاول أن يهرب بعد أن قتلها..

ولكن كاتب الأدب غير مقيد بكل هذا.. إنه يستطيع أن يصور الرجل كإنسان رقيق ضعيف غلبته الحياة وظلمه المجتمع.. ويستطيع أن يسميه «أحمد» بدلًا من «عوض».. ويستطيع أن يجعله يقتل زوجته لأنها فضلت النقود على الحب.. ويستطيع أن يجعله يبكي بعد قتلها ويذهب إلى رجال البوليس ويسلم نفسه..

ويختلف الأثر الذي تتركه كل من القصتين.. فالذي يقرأ ما كتبه الصحفي، يسخط على القاتل.. والذي يقرأ ما كتبه الأديب يرثي للقاتل.. رغم أن الحادث الذي أثار قلم الصحفي وقلم الأديب، حادث واحد..

هذا هو الفارق..

وقد بحثت عن هذا الفارق، وأنا أعيد قراءة مجموعة قصص «صانع الحب» و«بائع الحب»، لأعدها للطبعة الثانية..

هل الذي كتب هذه المجموعة صحفي أم أديب؟!

لا شك أنه صحفي.. فمعظم قصص المجموعة تسرد واقعًا ملموسًا لا خيال فيه، وبعضها يضم «ريبورتاچات» أو «تحقيقات» صحفية عن بلدان زرتها.. وبعضها يضم أسماء معروفة، وشخصيات واقعية لم أذكر أسماءها.. والتقيد بالواقع إلى هذا الحد، هو من مميزات الصحفي لا من مميزات الأديب..

ولا شك أيضًا أن كاتب هذه المجموعة، أديب.. فإنه بعد أن سجل الواقع الملموس ترك لخياله العنان.. الخيال الذي أثاره الواقع.. واقع الحوادث التي عاش فيها، وواقع الشخصيات التي عرفها.. وهذا التحرر والتمادي في الخيال، هو من مميزات الأديب لا من مميزات الصحفي..

ماذا يمكن أن يسمى هذا النوع من القصص؟

هل يمكن أن يسمى «قصصًا صحفية»؟

ربما..

* * *

وقد كنت أعيد قراءة هذه المجموعة وأنا أبتسم في حنان، كأني أرى شبابي بين السطور.. شباب حياتي، وشباب خيالي.. الشباب الذي لا أستطيع أن أستعيده.. لا أستطيع أن أكون مرة ثانية في السادسة والعشرين من عمري!!

منذ عشر سنوات - أو إحدى عشرة سنة - سافرت إلى أوربا لأول مرة.. إلى لندن، وباريس.. وزيارة أوربا لأول مرة، غير زيارتها لثاني أو لثالث مرة.. إن كل ما تراه في أوربا لأول مرة يثيرك.. ويفتح قلبك وخيالك.. الجبال، والوديان، والبحيرات، والشلالات، والحياة، والرجال والنساء.. كل هذه المظاهر التي لا نراها في مصر، تجعلك تقفز، وكل ما فيك يقفز معك، عندما تراها لأول مرة.. فإذا عدت لتراها مرة ثانية فقدت جدتها، ولم تعد تثيرك، ولا تدهشك، ولا تحرك خيالك..

وأذكر عندما سافرت إلى أوربا لأول مرة، كان عليّ أن أعرض نفسي على طبيب هناك.. ولكن ما إن رأيت أوربا حتى نسيت الطبيب ونسيت مرضي، وعشت في الجمال الذي خلع قلبي.. ثم لما عدت إلى أوربا مرة ثانية نسيت أوربا وعشت مع الطبيب ومع مرضي!!

وكثير من قصص هذه المجموعة، كتبتها عقب زيارتي لأوربا عام 1946.. وكلها تصور البهرة التي يحس بها المصري عندما يزور أوربا لأول مرة.. وهي قصص صادقة.. ليست صادقة في حوادثها، ولكنها صادقة في تصوير أحاسيس وخيال الشاب عندما يلتقي بأوربا لأول مرة..

وقصص أخرى من هذه المجموعة تدور حول شخصيات واقعية عاشت في مصر - بعضها ذكرت أسماءها - وهي من النوع الذي يسمى «قصصًا صحفية» لأنها مقيدة بالواقع.. واقع الأبطال الأحياء للقصة..

وليس في المجموعة إلا القليل من القصص التي يمكن أن تعتبر أدبًا خالصًا، كقصة «صديقي يحب».. فهي مجرد قصة!

لماذا لم أكتب من ذلك الحين، القصة الخالصة الأدبية، التي تضم كل عناصر القصة!

لقد كتبت القصة قبل أن أكون صحفيًّا، كتبتها منذ كنت في العاشرة من عمري.. فلماذا أقلعت عن كتابتها، واكتفيت بما أسميه «القصص الصحفية»؟

لا أدري..

ربما لأن القصة لم تكن حتى ذلك الحين عنصرًا بارزًا في الصحف المصرية.. ولأني أردت أن أنجح ككاتب صحفي، فامتنعت عن كتابة الأدب.. واكتفيت بهذا النوع من القصص الصحفي، الذي يعتمد إلى حد كبير على تعريف القارئ بالبلدان التي يزورها الصحفي، وبالشخصيات التي يتعرف بها..

ثم تطورت الصحافة بعد ذلك، وتطورت معها، وأصبح الأدب، وأدب القصة على الأخص، عنصرًا هامًّا في الصحف المصرية، فبدأت أتحرر شيئًا فشيئًا من شخصية الصحفي، وأندمج في شخصية الأديب..

* * *

وبعد..

لقد امتنعت طويلًا عن إعادة نشر هذه المجموعة من القصص.. والسادة الناشرون يلحون في إعادة طبعها منذ سنوات وأنا أرفض.. أرفض لأن خيالي اليوم ليس خيال شاب في السادسة والعشرين من عمره، ولأن آرائي اليوم تختلف اختلافًا كبيرًا عن آرائي عام 1946.. لقد طورت التجربة والاطلاع من آرائي.. ولكن صديقي وزميلي الأستاذ فتحي غانم أقنعني بأني لا أستطيع أن

أنكر شبابي.. وبأن هذه المجموعة من القصص هي إحدى علامات الطريق الطويل الشاق فيه لكي أجعل من نفسي كاتبًا.. وأن تاريخ الأديب يحتم عليه أن يضع إنتاجه في كل مراحله، ليراه القراء في كل أطوار حياته.. يرونه في صباه، وفي شبابه، وفي رجولته، وفي شيخوخته..

واقتنعت..

واقتنعت أكثر لأني عندما أعدت قراءة هذه المجموعة، شعرت بمدى ما فيها من صدق..

صدق خيالي.. وخيالي عندما كنت في السادسة والعشرين من عمري..

إحسان عبد القدوس

القاهرة - أكتوبر عام 1957

من لندن إلى باريس

سار في شوارع لندن - لأول مرة - وحيدًا مجهولًا من الجميع إلا من قليل سمعوا باسمه أو علموا بزيارته، وكان في سيره مجدًّا، نهمًا لا يستريح ولا يرحم نفسه، يريد أن يرى ويفهم كل ما حوله في أيام لا تتعدى الثلاثين.

ولم تكن مهمته سهلة كما كان يتصور، فقد التقى هناك بشعب محافظ منطو على نفسه لا يسألك من أنت إلا إذا اقتحمت عليه الدار، وكان عليه أن يقتحم ألف دار ليرى الرجل الإنجليزي وكيف يعيش وكيف يفكر وكيف يحب!..

واستطاع أن يقتحم أبواب الوزارات وأن يقابل من اعتادت الصحف أن تسميهم «المتحدثون بلسان وزارة الخارجية الإنجليزية» هؤلاء الذين كان يرى لهم صورًا غامضة مثيرة بين سطور البرقيات التي تنشرها الصحف..

واستطاع أن يصل إلى الطبقة الراقية الإنجليزية في قصورها وفي نواديها الليلية، وأن يدرس هذه الأرستقراطية المقدسة التي عجزت المبادئ السياسية والاجتماعية عن هدمها..

واستطاع أن يعيش بين سكان الايست اند في فقرهم وتهتكهم وخمرهم، واكتشف السوق السوداء في لندن، ورأى المرأة الإنجليزية المتكبرة المتغطرسة عندما تتعرى عن تكبرها وتغطرسها وتصبح عبدة شهواتها وحسها، وتنسى الإمبراطورية العظيمة التي لا تغرب عنها الشمس لتصبح إنسانًا فطريًّا بهيمًا لا يميزه عن سكان الغابات إلا لونه الأبيض!

ورأى الحب..

الحب الرخيص المفضوح في حدائق هايد بارك.. والحب الرقيق العف بين غابات اسكوت وحشائش كمبريدج والحب المجنون المعربد في حانات حي تشلسي والماي فير.. والحب العاقل الرزين بين الأزواج الإنجليز.. والحب الشاذ بين شقراوات الايست اند وزنوج إفريقيا على أرصفة الميناء!

وكان في كل ذلك كآلة تصوير يلتقط بعينيه صور الحياة والحب التي تمر أمامه ويسجلها في ذاكرته دون أن يشعر بها في قلبه..

كان قد ترك قلبه على عتبة داره قبل أن يغادر القاهرة وعاش على نبضات ذكرياته.. ذكريات حب خلق منه الرجل، وسند خطواته العرجاء في الحياة حتى قويت واشتدت، حب اجتمع فيه العقل والطيش، والحس والقلب، وباركته الدموع والبسمات.

وقد أتعبته هذه الذكريات وأنهكت أعصابه، فقد كانت دائمًا تشعره بوحدته في غربته، وكانت دائمًا تشد ذهنه إلى بلده وإلى بيته وإلى حبه.. وكان يكافح هذه الذكريات حتى لا يشرد عما حوله، وقد حطمه هذا الكفاح.. الكفاح ضد نفسه وضد ذكرياته، فما كاد ينتهي من زيارته لانجلترا ويصل إلى باريس حتى أحس بنفسه إنسانًا خاوي القلب، مصدع الرأس، أصم الحس، مضعضع الأعصاب، وأحس بحاجته إلى اليد الناعمة التي تلمس جبهته لتعيد إليه رشده، وإلى الهمسة الخافتة التي تهف في أذنه لتوقظ حواسه وإلى الصدر الحنون الذي يتلقاه ليريح رأسه بين خفقاته..

كان هذا هو حاله عندما وصل إلى باريس... وهنا تبدأ القصة الأولى.

عذراء هولاندا

كان يزور متحف اللوفر، وهو من عادته يكره زيارة المتاحف ودور الآثار، ولكنه زارها في باريس لا لشيء إلا ليقول للناس حين عودته أنه زارها، وأنه رأى بعيني رأسه قبر نابليون، وقصر فرساي، وصورة الجيو كندا وتمثال ڤينوس، وليستطيع أن يحشو مقالاته بأسماء رفائللي، ورمبراندا وغيرهما من الفنانين كما يفعل صديقاه الصاوي وتوفيق الحكيم!

وانتهى طوافه في متحف اللوفر إلى تمثال ضخم لأبي الهول يحتل حجرة خافتة الضوء في القسم الخاص بالآثار المصرية، ولا يدري ماذا أصابه عندما وقف أمام أبي الهول وقد خيل إليه أنه وحيد في المكان.. قد يكون حنينه ولهفته إلى مصر أثارها في نفسه رؤية أبي الهول، وقد يكون الفخر بأجداده الفراعنة وهو يرى سطور مجدهم قد خطت في كل متحف من متاحف الغرب..

لا يدري ماذا أصابه، ولكنه سمع صوته يرتفع في خطاب حماسي يلقيه على مسامع التمثال الأصم الرابض أمامه، ولو أفاق لضحك على نفسه ولسخر من هذا المجنون الواقف في أحد أروقة متحف اللوفر يلقي خطابا بين يدي تمثال أبي الهول.. ولكنه لم يضحك ولم يسخر من نفسه، فقد كان في شبه غيبوبة أفنى فيها كيانه متحمسًا لأجداده الأفاضل!

وفجأة سمع ضحكة رقيقة خافتة مكتومة رنت في أذنه رنين نغم ينبعث من وادي الملوك.. سمع هذه الضحكة مرة وسمعها مرة ثانية، فالتفت بدافع مجهول وراءه، فرآها أمامه!

فتاة في عمر الورد.. ينسدل على جبينها شعر ذهبي في لون سنابل القمح وقت الحصاد، فوق عينين في زرقة سماء الصيف، وشفتان تضجان بحرارة الصبا، ووجنتان يصهرهما شباب الثامنة عشرة..

كانت جالسة فوق قاعدة تمثال تنظر إليه ويداها فوق ثغرها تكتم بها ضحكاتها، وعندما التفت إليها نظرت إليه وهو في ارتباكه من مفاجأة رؤيتها، ثم قالت وفي عينيها أسف واعتذار:

- آسفة لإزعاجك.. سأنصرف لتكمل صلاتك!!

- إنها ليست صلاة.. ولكنها دماء الفراعنة في عروقي جعلتني أحن إلى حديث مع أبي الهول!!

- هل أنت فرعوني؟!!

- إني مصري.

- هذا ما حسبته!

وحدثها عن مصر، نسائها ورجالها وأديانها ونظم الحكم فيها، ثم قام يطوف معها معروضات القسم المصري بالمتحف، ولم تحرجه بسؤال عن تفاصيل تاريخ الفراعنة، ولو سألته لأسقط في يده، فقد كان دائمًا الأخير بين طلبة مدرسته في مادة التاريخ..

ولم تسأله لأنها كانت تعرف كل شيء.. كانت تعرف تاريخ حجر رشيد وتاريخ مينا وخوفو وتحتمس، وأحس بالخجل وهي تشرح له الفرق بين الفن المصري القديم والفن الإفريقي، فقد كان جاهلًا بكل كلمة قالتها ولو أنه كان يتظاهر دائمًا بأنه يعرف أكثر مما تعرف.

وخرجا سويًّا إلى حديقة المتحف، فلاحظ أنها ترتدي ثوبًا رخيصًا بسيطًا، وحذاء كأحذية لاعبي كرة القدم معفرًا ممزقًا، وتحمل في يدها حقيبة كتلك التي يحملها بعض النساء عند ذهابهن إلى سوق الخضار، وكانت في مشيتها لا تتمايل ولا تنثني بل تقفز وتنط وتضرب الحجارة بقدمها.. كانت كتلميذ شقي في إحدى المدارس الابتدائية..

وكانت فعلًا «تلميذة»، ولكنها لم تكن باريسية أو فرنسية، بل طالبة هولاندية أنهت دراستها الثانوية.. وكانت في طريقها إلى سويسرا لتلتحق بإحدى الجامعات هناك.

وقبلت دعوته إلى الغداء.. فصحبها إلى الفندق الذي يقيم فيه، ولكن الخادم اعتذر لهما بأن المطعم الملحق بالفندق قد أغلق أبوابه، وهو مستعد أن يقدم لهما الطعام في غرفة «المسيو»..

وغمز الخادم اللعين بعينه!!

وسألها وقد أربكته تقاليده الشرقية، هل تقبل أن تصحبه إلى غرفته لتناول الغداء..

وأجابت في بساطة وكأن وجودها معه في غرفته - وهي غرفة نومه - أمر طبيعي لا يثير الشبهات.. أجابت:

- لم لا؟!

وصعد إلى غرفته.. وبين أطباق اللجوست وأكواب نبيذ البوربون أخذت تحدثه..

حدثته عن هولاندا يوم احتلها الألمان ويوم احتلها الإنجليز!! وحدثته عن أمها وأبيها وإخوتها الصغار، وعن أبطال هولاندا الذين حاربوا الأسبان وفتحوا الهند واحتلوا أندونيسيا.. وكان الحديث كله لها، فلم تترك له فرصة ليقول كلمة واحدة، حتى ظن أنها تتعمد ألا تترك له الحديث حتى لا يوجهه إلى موضوع لا ترغب فيه..

وبكل بساطة خلعت حذاءها - وهي مستمرة في حديثها - ثم قامت ودخلت إلى الحمام وغسلت وجهها ثم عادت وألقت بنفسها فوق الفراش.. فراشه هو!!

وحاول أن يكون في مثل بساطتها، فخلع ملابسه، وارتدى «البيجاما»، ودخل إلى الحمام وغسل وجهه، ثم عاد وألقى بنفسه على الفراش.. بجانبها!!

وسواء تعمد أو لم يتعمد، فقد جاءت رقدته ملتصقًا بالجسد الساخن الصبي، ولمست شفتاه الوجنة الناضجة في قبلة خاطفة اهتزت لها أعصابه.. واشتعلت دماؤه.

وسكتت الفتاة عن الحديث - وكانت لا تزال تتحدث عن هولاندا!! - وظللت جبينها سحابة غضب رقيقة، أو رأى في عينيها نظرات مترددة تصل إليه من بعيد تحمل ذكريات حزينة، وقالت وهي تزيحه عن صدرها في رفق:

- إنك ستفسد كل شيء..

قال:

- إني لم أتعمد شيئًا.. آسف!

قالت:

- لا تأسف.. ولكن عدني بشيء..

- ما هو؟

- ألا تقبلني إلا إذا قبلتك!

- أعدك..

- هل تقسم بمحمد؟!

- أقسم..

وناما حتى المساء على فراش واحد لا يفصل بينهما سوى قَسم لم يحاول أن يحنث به!

* * *

وقضيا السهرة سويّا في «بلاس بيجال» فركبا الأراجيح، وقذفا الكرات الملونة ورقصا في «المولان روج»، وأكلا القشطة في قراطيس البسكوت، وشربا «المانت» المثلج.. وضحكا حتى قفزت دموع النشوة من مآقيهما..

ولكن كان يقف بينهما شيء.. سر مجهول.. فقد كانت تتحدث اللغة الألمانية بين اللغات الخمس التي تجيد التحدث بها، وهو يعرف مطلع أغنية ألمانية تدعى «ليلى مارلين» فأخذ يتمتم بها ليتظاهر أمامها بأنه يعرف شيئًا من الألمانية.. وعندما سمعته لأول مرة يترنم بهذه الأغنية أسكتته بسؤال، يذكر تمامًا أنه كان سؤالًا سخيفًا..

وعندما عاد إلى الترنم بالأغنية نفسها قالت له: «إنها أغنية سخيفة.. لا أحب سماعها..».

ولكنه عاد وترنم بها للمرة الثالثة فصاحت في وجهه في عصبية وغضب: «اخرس.. قلت لك اخرس».

وعندما رفع إليها عينيه متسائلًا، ألقت برأسها على صدره وأخذت تبكي وقالت خلال دموعها: «أرجوك.. لا تسألني شيئًا.. ولكن لا تعد إلى الترنم بهذه الأغنية»!!

وجففت دموعها وعادت تبتسم، ونسيا سر الأغنية خلال ضحكاتهما وضجة البلاس بيجال..

وعندما أوصلها في الساعة الثالثة صباحًا إلى الفندق الذي تقيم فيه، وضعت كلتا يديها في يديه، ونظرت إليه من خلال أهدابها نظرة صامتة حاول أن يقطع صمتها بكلمة، ولكنها وضعت إصبعها على شفتيه وقالت:

- هس.. لا تتكلم.. دعني أنظر إليك!!

ثم فاجأته بقبلة على وجنته، قبلة خاطفة خجلة، جرت بعدها واختفت داخل الفندق.

لقد حلّته من قسمه!!

* * *

وفي اليوم التالي انتقلت من الفندق الذي تقيم فيه وعاشت معه في نفس الفندق وفي نفس الغرفة وعلى نفس الفراش!

وهو يذكر الليلة الأولى وهي في غلالتها الرقيقة، عندما انطوت على نفسها بين أحضانه، ودفنت رأسها في صدره وأخذت تعبث بإصبعها في أزرار بيجامته، وشعرها الذهبي يهف على وجهه في رقة دغدغت أعصابه.. يذكر أنها قالت في كلمات متكسرة خجلة دون أن ترفع إليه عينيها:

- إني.. إني.. عذراء!!

وصمتا لحظة، يذكر بعدها أنه قبلها في جبينها، ثم رفع وجهها وقال في لهجة أب حنون يدلل ابنته:

- وستظلين عذراء!!

* * *

وناما ولم يكن ثالثهما الشيطان!

وملأت عليه حياته، كانت تغسل له ثيابه، وتحسب نقوده، وتلخص له كل صباح جميع الصحف الفرنسية، وكانت تطوف به أنحاء باريس لتريه معالمها، وكانت تتحمس لعمله وتسعى معه حيث يسعى وتغضب حينما يغضب، وتضحك حينما يضحك، وأفنت شخصيتها في شخصيته ورضيت بعاداته الشرقية فكانت تعتذر لأصدقائه حينما يدعونها للرقص، وترفض أن تجيب على سؤال رجل غريب حتى لو سألها «الساعة كام؟!». ولو أنه أمرها أن تسدل على وجهها «برقع» لأطاعت!!

وقد حدثها عن نفسه كثيرًا.. عن حياته وعمله وأيام صباه. ولكن ناحية واحدة من حياته لم يحدثها عنها.. الناحية التي تضم قلبه الذي تركه على عتبة داره في القاهرة.. وربما خجل أن يبوح بذكرياته أمام فتاة غريبة طارئة على قلبه، أو ربما ضن بحبه أن تلوثه كلمة قد تخرج من فم الفتاة.. كان حبه عزيزًا عليه.. كان صلاة يتعبد بها عندما يخلو إلى نفسه.. صلاة يرددها في صدره ويتلوها صامتًا.

وعاشت معه، وهي لا تعلم أن له حبّا في القاهرة، ولكنه يقسم أنه لم يحاول يومًا أن يقنعها أنه قد أحبها، بل لم يسمعها يومًا - حتى وهو في حماس النشوة - كلمة حب واحدة.. كل ما قاله لها إنها ملأت حياته وأنسته وحدته وغربته، كما أنه ملأ حياتها وأنساها وحدتها وغربتها!!

وكانت لها عادة غريبة.. فقد كانت تترك له كل ليلة قبل النوم خطابًا تحت الوسادة، يتلوه وهو بجانبها، وكانت تضمن خطاباتها عواطفها ومشاعرها وما يعجز لسانها أن يعبر له عنه.. وقد عودته ألا يناقشها فيما تكتبه في خطاباتها، فإن أراد أن يرد عليها، فله أن يرد بخطاب آخر يضعه تحت وسادتها.

وكانت خطاباتها قطعًا أدبية رائعة..

كتبت له يومًا تحدثه عن عمله: «إني أعلم أنك تكره العودة إلي مصر لأن هناك حربًا تنتظرك. ولكنك ستعود وستحارب وستنتصر، لا لأنك من أنصار الحرب بل لأنك تأبى أن تهزم»!!

وكتبت له مرة أخرى: «إني لا أطالبك أن تحبني، ولكن فقط دعني أحبك»!!

وكتبت له تصف له قصة لقائهما:

«ستمر أيام وأعوام، وسنتساءل بعدها: هل سمعنا بهذه القصة أم عشنا فيها!!».

وحدث يومًا أن وجد تحت وسادته خطابًا لم يستطع قراءته، فقد كان مكتوبًا بلغة استنتج أنها اللغة الهولاندية..

وسألها فحوى هذا الخطاب فصمتت ولم ترد، وألح عليها فأبت، وحاول أن يقنعها أن هذا الخطاب قد أصبح ملكا له، وأن من حقه أن يطلع على فحواه، ولكنها أصرت على ألا تجيب..

وأثار إصرارها حاسة حب الاستطلاع في نفسه - وهي أقوى حواسه! - وأغضبه صمتها، ففقد أعصابه وأمسك بها يهزها بعنف، ثم جذبها من شعر رأسها حتى أوقعها تحت قدميه وهو يصيح في وجهها: «تكلمي.. ماذا كتبت لي في خطابك»!!

وبكت.. بكت بكل دموعها.. حتى نسي غضبه وهدأت أعصابه واحتواها بين ذراعيه يعتذر ويمسح دموعها بشفتيه.

قالت وصوتها تقطعه دموعها: «إن هذا الخطاب يضم الشيء الوحيد الذي تجهله عني.. لقد كتبت لك قصة أنشودة ليلى مارلين..».

* * *

أنشودة «ليلى مارلين»..

كان ذلك عام 1943 وكان أحد الجنود الألمان يغني هذه الأغنية عندما التقت به وحيدة بين حشائش حقل من حقول هولاندا.. وتقدم إليها يحادثها فأجابت حديثه، ثم سارا سويّا متوغلين بين الحشائش، وبغتة ضمها الجندي إلى صدره وحاول تقبيلها، فدفعته بلطف، ولكنه تمادى حتى توحش، فتملصت من بين ذراعيه وجرت بعيدة عن الوحش، ولكن قدمها التوت، فوقعت على الأرض وأثناء وقوعها ارتطم رأسها بحجر ففقدت وعيها..

هذه هي كل قصة «ليلى مارلين» قصتها عليه في همسات باكية، ثم رفعت إليه عينيها وقالت من بين دموعها: «يا صديقي.. لقد كذبت عليك إني.. إني لست عذراء»!!

ومسح بيده على شعر رأسها وقال في هدوء: «أهذا كل شيء.. رفهي عنك فإني أعلم ذلك منذ اليوم الأول»!

وأدارت له رأسها في حركة عصبية وقد كفت عن البكاء فجأة، وصاحت وكأنها تستنكر ما سمعت:

- ماذا تقول؟

وقال مرة ثانية في هدوء: «قلت إني أعلم منذ اليوم الأول أنك لست عذراء»!!

قالها وهو يظن أنه لم يقل إثمًا، ولكنها قفزت من مكانها، كأن الشيطان نفخ في جسدها وتقدمت إليه وفي عينيها نظرات تحرق وجهه وصاحت وهي لا تكاد تتمالك كلماتها:

- أتعني أن.. أن.. أيها المصري الملعون..!!

ثم اتجهت نحو باب الغرفة وهي تتمتم بكلمات هولاندية لم يفهمها، وحاول أن يلحق بها وأن يحول دون خروجها، ولكنها التفتت إليه ورفعت يدها بغتة وصفعته صفعة ما زال رنينها يدوي في أذنه حتى اليوم..

وذهبت..

ولم تعد.. إنما أرسلت له من يحمل إليها ثيابها وحقائبها.

* * *

وهو لم يفهم حتى اليوم لماذا ذهبت ولماذا لم تعد، ولكنه يعرف أن هناك هنات تافهة قد تجرح كبرياء المرأة أكثر مما تجرحها صفعة، وقد جرح كبرياءها عندما أراد أن يواسيها في قصتها. فقال لها - دون أن يقصد - أنها امرأة كاذبة، وأنه عاش معها هذه الأسابيع الطوال وهو يعلم أنها كاذبة وأنها ليست عذراء، بل امرأة!!

لقد كذبت عليه لأنها أرادت أن تخفي جرحها. فلما قال لها إن جرحها كان أكبر من أن يخفى عليه.. هجرته، لأن المرأة قد تعترف لك بأنها كذبت، ولكنها تأبى عليك أن تكشف كذبها بنفسك..

وربما كانت تنتظر بعد أن سكبت بين يديه اعترافها، أن تسمع منه كلمات الغفران، وأن ترى في عينيه انعكاس مأساتها، وأن يحبها شفقة بها ما دام لم يحبها لمجرد الحب، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث وسمعت منه الشيء الوحيد الذي لم تتوقعه منه، عندما قال لها:

- إني أعلم منذ اليوم الأول أنك لست عذراء!!

إذن قصتها التي حرصت على إخفائها عنه كانت بالنسبة له أتفه من أن تكون مأساة، وهذا الحرص الشديد على أن تكون أمامه عذراء كان في عينيه مجرد رياء، وهذا الكبت القاسي الذي تحملته وهي تعيش معه على فراش واحد، قد أدى بها إلى لا شيء سوى أنه كان يسخر منها بينه وبين نفسه.. كان يسخر منها كل يوم وكل ليلة وكل لحظة من لحظات حياته معها..

لقد كان يسخر منها ومن عذريتها الموهومة - أو هكذا ظنت - فهجرته..

هجرته وكل ذنبه أنه كان «قليل الذوق»، وأنه لم يعرف كيف يعامل امرأة كاذبة.. حاولت بكذبها أن ترضي كبرياءها...

لقد ذهبت من حياته إلى الأبد..

وتركته لقصته الثانية!

السكرتيرة الحسناء

كان أشد ما يخشاه خلال رحلته هو ضياع الوقت.. وقد قضى ثلاثة أيام في لندن وهو تائه لا يعرف أين يضع قدمه، واشترى أكثر من خريطة جغرافية، وأكثر من رسم تخطيطي لطرق المواصلات والمترو، ولكنه كان يتوه فوق الخرائط والرسوم أكثر مما هو تائه بين الشوارع.

وكان يكره أن يلجأ إلى أحد مكاتب السياحة لتنظم له رحلته وتعين له حارسًا يطوف به المتاحف وأعلام المدينة ويحدثه حديثًا مملًّا معادًا، كأنه طفل أو طالب في إحدى الرحلات المدرسية. ثم إنه كان يريد أن يرى أشخاصًا أو يطرق أبوابًا لا تدخل في اختصاص شركات السياحة، فكان يضطر أن يقتحم طريقه اقتحامًا، وأن يتعثر الساعات بل الأيام باحثًا عن مواضع قدمه، وصرف نصف نقوده في ركوب سيارات الأجرة؛ وكانت دائمًا الملجأ الأخير عندما يتعبه سؤال الناس وسؤال رجال البوليس.

وعندما وصل إلى باريس خشي أن تضيع منه الساعات والأيام التي أضاعها في لندن وخشي أن يقاسي ما قاساه من سؤال الناس ورجال البوليس، خصوصًا وأنه لا يجيد الفرنسية قدر إجادته للإنجليزية.

ولكن الفتاة الهولاندية التي التقى بها وعاشت معه، أغنته عن كل ذلك، فقد كانت له بمثابة سكرتيرة تدله على طريقه، وتتلقى رسائله التليفونية، وتقرأ له الصحف الفرنسية وتذهب معه إلى دور الحكومة لتترجم له ما يريد أن يقوله وما يقال له.

وعندما هجرته أحس أنه فقد كل شيء حتى نفسه، وأصبح تائهًا في باريس لا يدري كيف يذهب ويجيء ولا كيف يؤدي عمله..

وفكر أن يستخدم سكرتيرة.

لماذا لم يفكر في استخدام سكرتير؟

لا يدري.. وقد يكون تفكيره قد اتجه إلى سكرتيرة بحكم العادة الشائعة بين الناس، فقد اعتاد رجال الأعمال أن يستخدموا سكرتيرات لا سكرتيرين!! ثم إن مصاحبة سكرتيرة مفروض أنها ستصحبه طول يوم في غدواته وروحاته أخف على النفس من مصاحبة سكرتير!!

وقد تردد كثيرًا قبل أن يحاول البحث عن سكرتيرته لأنه يكره أن يبدو كأصحاب الأعمال، ويكره أن يقيد نفسه إلى إنسان سواء أكان رجلًا أم امرأة، ولكنه بعد

أن تحادث تليفونيًّا مع إحدى الإدارات الفرنسية وعجزت أذناه عن التقاط اللهجة الفرنسية الباريسية صمم على أن يكون له سكرتيرة، ولو لتتولى عنه المخاطبات التليفونية!

وقابل مدير الفندق وأخبره بحاجته إلى سكرتيرة، فابتسم الرجل ابتسامة خبيثة وغمز بعينيه غمزة ذات معنى، ثم مال على أذنه هامسًا: «أتريدها سمراء أم شقراء»!

وفهم ما يقصده مدير الفندق فرد ابتسامته بأحسن منها وحاول أن يفهمه أنه لا يريدها سمراء ولا شقراء، بل يريدها سكرتيرة.. سكرتيرة بحق وحقيق!!

ولكن أصحاب الفنادق في باريس بل كل أهل باريس، لم يتعودوا أن ينظروا نظرة نقية خالصة إلى أي أجنبي، فكل أجنبي في باريس - كما يتصورون - يبحث عن امرأة، وسواء أطلق عليها لقب سكرتيرة أو صديقة أو خادمة فهو يريدها أولًا كامرأة..

وأشار مدير الفندق إلى فتاة جالسة في بهو الفندق خلف مكتب تبيع تذاكر حفلات المسرح والأوبرا، وقال وهو يحاول إغراءه بنظرات عينيه وحركات يديه:

- ما رأيك في هذه الفتاة؟!.. إنها سكرتيرة طيبة.. ثم إنها قنوعة لن تكلفك كثيرًا!!

واضطر أن يثور وأن يخبط بيده على مكتب مدير الفندق ويسبه ويشتمه باللغة العربية - طبعًا!! - ثم يحاول أن يقنعه بأنه يريد سكرتيرة لتعاونه، لا لتعرض عليه ساقيها، وأنه يريدها فتاة شريفة جادة تتكلم الإنجليزية.

وثار مدير الفندق بدوره، وكل فرنسي ينتهز أي فرصة ليثور فيها... والثورة عندهم فن له دراسات في طريقة إخراج الألفاظ وتوجيه الإشارات وتهويش خلق الله!! وقال الرجل أثناء ثورته ما معناه أن حضرة الزبون غبي، وأن ليس هناك أي داع يدعوه لاستخدام سكرتيرة لا تشاركه الفراش!

ثم قطع ثورته فجأة وسأله:

- هل حقيقة أنك تريد سكرتيرة.. سكرتيرة تكتب على الآلة الكاتبة وتختزل... إلخ.

- نعم.

- لماذا لم تفهمني هذا من قبل؟!

ثم وضع رأسه بين يديه وفكر قليلًا، ثم قال: «الطريقة الوحيدة أن تنشر إعلانًا في الجرائد»!!

وفي صباح اليوم التالي ظهر في جريدتي «الفيجارو» و«الباري بريس» إعلان من أربعة أسطر نصه:

«مصري يبحث عن سكرتيرة محترمة تجيد اللغة الإنجليزية، والاتصال بفندق دي لوفر».

وبعد ظهور الجريدتين بنصف ساعة اتصل به خادم الفندق في غرفته وقال له:

- إن الآنسات في انتظارك.

وسأل:

- أي آنسات؟

فقال الخادم:

- إن خمسًا وعشرين فتاة في انتظارك تلبية لإعلانك.. وقد طردنا الباقيات على أن يأتينك غدًا إذا أردت!

ووقع قلبه في قدميه...

كيف يقابل هؤلاء الآنسات؟ وكيف يفاضل بينهن؟ وكيف يناقشهن في طبيعة العمل الذي يريد أن يعهد به إليهن وهو نفسه لا يعلم شيئًا عن هذا العمل سوى أنه تائه في باريس؟

ونزل إلى بهو الفندق، وفي طريقه إلى الغرفة الخاصة التي أفردوها له ليستقبل فيها الآنسات، سمع بأذنيه همسات النزلاء ورأى ابتساماتهم وفيها من السخرية أكثر مما فيها من الاحترام والتقدير.

وأدخلوا إليه الآنسة الأولى..

وما كاد يرفع عينيه إليها حتى أحس بنار تلهب وجنتيه وأحس بأعصابه تتخلى عنه حتى ارتعشت أطرافه واهتزت ركبتاه..

من قال إنها آنسة؟ إنها امرأة.. امرأة من زمن بعيد!! وتحت جفنيها من الأنوثة الساخنة المثيرة ما يجعل من الطفل رجلًا بل حيوانًا.. إنها دعوة حية إلى مائدة الشيطان.. وأنشودة معربدة توقظ باريس كلها وتملأ شوارعها ضجيجًا.

كانت شقراء في لون شعرها صفار الشمس عند المغيب، وفي عينيها لون العسل الذي لا تتحمل النفس حلاوته الزاعقة، وفوق شفتيها لون الدم.. دم الأعصاب التي تقطعت بين أسنانها... وكانت مرتدية ثوبًا لو اشترى لها اثنين مثله لأعلن إفلاسه، وفي إصبعها خاتم من الماس يحرضه على أن يكون شيوعيًّا!

وجلست قبالته وساقاها - المكسوتان بالنايلون - بين عينيه وحاول جهده أن يضبط أعصابه ويطفئ النار التي اندلعت في أطرافه، ولكنه أحس بصوته يخرج من حلقه متقطعًا مرتعشًا وهو يسألها:

- هل تجيدين الإنجليزية؟

وأجابت وفي صوتها رنين الخطيئة:

- طبعًا!

ولكنه عندما سمعها تتكلم الإنجليزية تأكد أنها لا تعلم منها إلا ما يكفي لاستدراج ضابط أمريكي ممن لا يزالون يحتلون فرنسا الحرة!

وعاد يسألها:

- هل تكتبين على الآلة الكاتبة؟

وأجابته محرجة وهي تحاول أن تخفي حرجها بابتسامة هاتفة:

- هل تحتاج كثيرًا إلى الآلة الكاتبة.. وعلى كلٍ سنجرب!

قال:

- أخشى أن يكون المرتب ضئيلًا!

قالت:

- المرتب لا يهم.. إنما المهم طبيعة العمل!

قال:

- إذن اتركي لي اسمك وعنوانك وسأتصل بك غدًا..

وقبل أن تغادره التفتت إليه وسألته: ما هو عملك؟

قال: صحفي...

ورأى سحابة من خيبة الأمل تظلل وجهها، ثم لوت شفتيها وأدارت ظهرها وانصرفت عنه، وقد تعلقت عيناه بالجسد الفاره الطري وهو ينثني في مشيته في صمت صاخب.

وما كادت تختفي حتى حل رباط عنقه وجمع أنفاسه ليستريح، ولكنهم ما إن أدخلوا إليه «الآنسة» الثانية حتى خلع سترته وطلب كوبًا من الليمون المثلج، فإن النار قد اشتعلت من جديد!

وإذا كانت الأولى تابعة للشيطان، فالثانية كانت الشيطان نفسه.. فهي لم تحاول أن تفرض نفسها كسكرتيرة بل وفرت على نفسها التمسك بحرفية الإعلان، وجلست وكتفها تكاد تلامس كتفه، وساقاها تكاد أن تلتفان حول ساقه، ثم أخرجت من حقيبتها علبة سجاير مذهبة انتقت منها واحدة، ومالت عليه حتى صهرت أنفاسها خياشيمه، وقالت وليس بين فمها وفمه سوى بقية من إرادته:

- تسمح.. نار!!

وأشعل لها سيجارتها، وقال بعد أن تنحنح مرة واثنتين وثلاثًا حتى يتمالك صوته:

- أين اشتغلت قبل الآن؟

- في الفولي برجير!

- سكرتيرة؟

- بل راقصة!

- ولكني أريد سكرتيرة!

- ألا أعجبك كسكرتيرة!

وزادت في اقترابها حتى ظن أنها ستجلس على ركبتيه، وسبح بين سحب عطرها حتى كاد أن يغيب معها عن الدنيا..

وأحس بنفسه كأنه إنسان يقاوم طوفانًا من الإثم، فأخذ يبتعد عنها في تردد يشوبه خجل وخوف، ولو رآه أحد في هذه اللحظة، لضحك كما يضحك عندما يشاهد منظرًا غراميًّا في أحد أفلام لوريل وهاردي أو بودابوت ولوكاستلو!!

وسمع صوتها يأتيه من بين ضجيج أنوثتها ويعيد عليه السؤال:

- ألا أعجبك؟

فقفز من كرسيه ووقف في وسط الغرفة وصاح وكأنه يطرد الشياطين من حوله:

- إنك تعجبينني جدًّا.. جدًّا يا آنسة.. ولكن أرجوك أن تتركي لي اسمك وعنوانك وسأتصل بك فيما بعد!!

وقامت تنصرف وعلى فمها ابتسامة كأنما كانت واثقة من النصر واثقة من أنه سيتصل بها فيما بعد.

أما هو فقد أحس أنه هزمها وهزم فتنتها وانتصر على الحيوان الذي كان قد بدأ يستيقظ في نفسه!

وأدخلوا إليه الثالثة والرابعة والخامسة وكلهن نساء بين الخامسة والعشرين والثلاثين من العمر، وكانت بينهن امرأة عجوز في الخمسين لم ير استخدامها لأنه قبل كل شيء يحب الجمال، حبًّا مجردًا كحب الفنان.. ثم إنه لا يستطيع أن يربط نفسه إلى امرأة ليست في سنه وليس لها نشاطه ولا عقليته.

ويذكر أن واحدة من هؤلاء «الآنسات» دخلت إليه وما كادت تراه حتى صاحت:

- إنك صغير جدًّا يا حضرة.. لقد كنت أظنك رجل أعمال.. عجوزًا ذا كرش كبير وأنف منقر.. إني سعيدة الحظ فإن شكلك يشجعني على العمل.

وكانت امرأة عصبية تقذف بكلماتها في سرعة المترليوز، وقد أنهى حديثها بالجملة المعتادة: «اتركي اسمك وعنوانك».

وبعد أن استقبل الفتاة العاشرة، ضجت أعصابه وأحس بنفسه متعبًا منهوكًا لا يستطيع أن يرى وجهًا آخر ولو هبط عليه من السماء، فنادى خادم الفندق وطلب إليه أن يصرف الفتيات الباقيات على أن يحضرن غدًا.

وخرج إلى شرفة الفندق يستنشق الهواء ويسترد أنفاسه التي تقطعت بين سيقان حضرات الآنسات!!

وتساءل: هل هؤلاء من سكرتيرات باريس؟ أم أن صيغة الإعلان كانت تنم على أنه يطلب امرأة فراش؟!..

«مصري يريد سكرتيرة» هكذا قال في الإعلان..

وهنا تذكر أنه يكفي أن تقول في باريس إنك مصري، حتى ترتمي في أحضانك ألف امرأة.. من ذلك الصنف من النساء؟!!

وأحس وهو جالس في الشرفة بإنسان يقف فوق رأسه وأنفاس تتردد في أذنه.. ورفع عينيه، فإذا به ينتقل في لحظة من باريس إلى القاهرة!

كانت فتاة سمراء كفتيات القاهرة اللاتي لم تمتزج دماؤهن بالدم التركي أو الشامي أو المغربي.. وكان في سمرتها سحر الشرق كله، ودفء شمس أسوان في شهر يناير، وقد عاش عمره كله في حب سمراء، وكانت لفتة واحدة إلى هذه الفتاة كافية لأن تفتح باب ذكرياته على مصراعيه، وأن تقيد عينيه إلى عينيها، ليستعيد بينهما ذكرى أسعد أيام العمر وذكرى البيت الصغير الهادئ الذي تركه وراءه قبل أن يبدأ رحلته، وترك على بابه قلبه وحسه وكل أمله.

وابتسمت الفتاة في ارتباك وخجل، وكانت إذا ابتسمت قفزت إلى وجنتيها غمازتان من «طابع الحسن» يضطرانك إلى الابتسام إن لم يكن إلى التقبيل.. وقالت:

- هل أنت صاحب الإعلان؟

- نعم.

- إني أشتغل سكرتيرة في وزارة الداخلية الفرنسية.. وإني الآن في إجازة تستغرق شهرًا، وقد رأيت أن أعمل خلال هذه الإجازة لأني في حاجة إلى نقود وإلى ملء فراغ وقتي و..

وقاطعها وهو لا يزال ينظر إليها:

- ولكن المرتب ضئيل.

- كم؟

- ألفان وخمسمائة فرنك في الأسبوع خلاف المصاريف..

- هذا يكفيني..

ولم تقدم له شفتيها ولا سحر عينيها كشهادتي حسن سير وسلوك كما فعلت باقي الآنسات، بل أخرجت له من حقيبتها بطاقة تحقيق شخصية تثبت أنها موظفة بوزارة الداخلية الفرنسية.

وأصبحت سكرتيرته..

وكان اسمها «ميشلين»..

وسألها كيف ولدت سمراء في باريس، والسمراوات هناك نادرات وخصوصًا صاحبات هذه السمرة الشرقية الطيبة، فروت له قصتها:

إن أمها من سكان جزائر المارتنيك، امرأة خالصة لله لم تلوثها المدنية، ولم تغادر قط قريتها الراكعة عند أقدام المحيط الهادي.. وعاشت إلى أن ماتت وهي ترتدي الثوب الوطني الذي يهب الجسد للشمس لتباركه وتطهره بالدفء وحرارة الوجود.

أما أبوها ففرنسي خدم وطنه في جزائر المارتنيك وتزوج أمها، لأنها كانت الحسن كله، ولأنه كان وحيدًا.. وما إن سنحت له الفرصة ليعود إلى باريس حتى ترك زوجته وابنته إلى الأبد.

وقد ماتت أمها وهي في الخامسة من عمرها، فأخذوها من بين الورد وزهور الياسمين إلى باريس لتبحث عن أبيها، وما إن وجدته حتى أدخلها أحد ملاجئ الأيتام حيث عاشت طفولتها إلى أن بلغت الخامسة عشرة فخرجت تبحث عن عيشها..

وقالت وفي عينيها دمعة تحاول أن تمسحها بابتسامة:

- إني سمراء لأمي.. ويقولون إني متوحشة مثلها!!

وكان هذا هو كل ما دار بينهما من الحديث الخاص.. وحاول بعدها أن يحتفظ دائمًا بمظهر صاحب العمل وأن يعاملها كموظفة لديه.. كسكرتيرة.. سكرتيرة ليس لها حق الاقتراب من شفتيه كما اعتدنا أن نسمع عن السكرتيرات!!

وكانت تأتيه كل صباح وفي يديها آلتها الكاتبة، فتلخص له الجرائد الفرنسية، ثم تكتب له خطاباته التي يرسل بها إلى لندن وبرقياته التي يرسل بها إلى

القاهرة، وتتولى عنه الاتصالات التليفونية، وتذهب إلى مكتب مسيو «فوشيه» مراسل الأهرام الخاص لتأتي له بأعداد جريدة الأهرام.. ثم يخرجان سويًّا عند الظهر لتدله على طريقه إلى الإدارات الفرنسية ودور الصحف التي يريد الاتصال بها..

وكان يعجب بها ويعجب بنشاطها وذكائها، ويكاد يهوي عليها تقبيلًا عندما تجلس إلى آلتها الكاتبة وقد غرست القلم الرصاص في شعر رأسها وأخرجت لسانها تضغط عليه بأسنانها، وقد أخذت أصابعها الرقيقة تتراقص فوق الحروف في رشاقة أعواد الزهر.

ولكنه لم يحاول أبدًا أن يظهر لها إعجابه ولم يحاول أبدًا أن يكون لها أكثر من «رئيس»، ورغم ذلك فقد أحس أنه يجب أن يتنازل عن بعض «قنزحته»، ويجب أن يقربها إلى قلبه كصديقة ليس إلا، فبدأ يحدثها وخاصة وقت الغداء - وكانا دائمًا يتناولان الغداء سويّا - عن نفسه وعن عمله وعن أصدقائه وقص عليها قصة حبه.

إنه يحب فتاة في مثل سنها ولها نفس سمرتها بل ونفس ابتسامتها، وهو حب طال وسيطول إلى الأبد، وهو كل ما يحرص عليه في حياته، وهو ملجأه الأخير عندما تخونه أعصابه أمام معركة الدنيا.. و..

وقاطعته قائلة في هزل تحاول أن تخفي به لهجة الجد:

- إذا كانت الأخرى في مثل سني وفي مثل سمرتي ولها ابتسامتي.. فهناك إذن أمل في أن أحتل مكانها؟!

قال وهو يتنهد:

- أبدًا.. لن تكوني أبدًا مثلها ولن تحتلي مكانها أبدًا!!

واكتفت بأن تضحك قائلة:

- غريبة.. أما زال يوجد رجال مخلصون؟!!

وقد علمت بعد أيام أنه ليس ثريًّا كما كانت تعتقد، وكما بدا للناس من إعلانه الذي نشره في الصحف.. فبدأت تنتقي له المطاعم الرخيصة وتعد في كل صباح نقوده، وتقيد في كتاب خاص ما صرفه وما بقي له، بل إنها بدأت تحاول أن تدفع ثمن طعامها وتدفع له ثمن تذكرة المترو أو الأوتوبيس، وبدأت تتمنع

عندما يعطيها مرتبها آخر كل أسبوع، وقد قرب كل ذلك بينه وبينها وأصبحا صديقين أكثر منهما رئيس وسكرتيرة.

وبدأ يحس بصداقتهما تتطور سريعًا إلى ما هو أكثر من الصداقة.. وكانت أحيانًا عندما تعرض عليه بعض الأوراق تميل عليه برأسها حتى يتوه في ليل شعرها، ويفتت أعصابه هذا العطر الغريب الذي اعتادت أن تتضمخ به والذي كانت تسميه «نزوتي»..

وكانت أيديهما أحيانًا تتلامس وحديثهما يصل في حالات أخرى إلى مواضع حساسة، وكان في هذه الحالات يتعامى حتى لا يتمادى..

وقد تعمد دائمًا ألا يدعوها إلى سهرات المساء، وألا يراها بعد انتهاء موعد عملها في السابعة مساء حتى لا يزيدهما الليل إغراء..

ولكن، حدث مرة أن عاد إلى غرفته في منتصف الليل، فإذا به يجدها جالسة إلى آلتها الكاتبة تكتب والتفتت إليه كأنها فوجئت، ثم قالت:

- أهذا أنت.. إني آسفة، ولكن كان عليّ أن أكمل تلخيص الصحف فاضطررت أن أعود بعد العشاء!!

وكانت كاذبة فهو لا يهتم أبدًا بتلخيص الصحف كل هذا الاهتمام ولم يطالبها يومًا بألا تؤجل عمل اليوم إلى الغد!!

وفهم كل شيء، وخشي كل شيء، فقال وهو يتردد:

- لقد جئت لأني نسيت محفظتي.. وسأعود، فهناك سيارة لبعض الأصدقاء في انتظاري!!

وكان هو أيضًا كاذبًا.. وكانت تعلم أنه كاذب!!

وتظاهر بأنه يبحث عن محفظته، ثم قال «بون سوار» وخرج.

ولم تتكلم ولم ترد عليه تحيته، ولكنه سمع صوت الآلة الكاتبة يشتد ويختلط حتى خيل إليه أنه صراخ امرأة!

* * *

ولم يتحدثا في الصباح عن الليلة السابقة، ولم يحاول حتى شكرها على سهرها في تلخيص الجرائد!!

وسارت حياتهما من جديد هادئة عادية فلم يحدث أن وجدها مرة أخرى في غرفته بعد منتصف الليل، ولم يحدث أن دعاها مرة لقضاء السهرة معه. ولكنه كان يرى في عينيها دائمًا نظرة توسل، وكانت شفتاها أحيانًا ترتعش كلما اصطدمتا بعينيه.. وكان يرى ويفهم، وهو ليس جمادًا، ولكنه كان يحاول دائمًا أن يكون جمادًا!!

إلى أن انتهت مدة إقامته في باريس، وفي اليوم الأخير زارا معًا كنيسة «القلب المقدس»، وما إن وطئت قدماها أرض المعبد حتى ركعت على ركبتيها ورسمت علامة الصليب فوق صدرها، وقامت واشترت شمعة أشعلتها تحت أقدام صورة مريم العذراء ثم غابت في صلاة طويلة..

وعندما انتهت من صلاتها كان الماء المقدس - ماء عينيها - يغسل وجهها..

وكاد قلبه يتمزق.. فقد شاهد ساعتها روحها.. الروح الطيبة البكر عندما تتجرد عن الحياة وتهب نفسها لله، وقد رأى نفسه في صلاتها كما رآها في عينيها، ورأى الجسد المعذب عندما يبتهل إلى ربه ليريحه من دعوات الشيطان، ثم يرتعش وكأن روح القدس قد مسته لتطهره..

واكتفى بأن يضغط على يدها وهي تمسح دموعها... وأحس وهو في صحن المعبد أنه.. قاهر شيطان!

وعندما وقفت تودعه ابتسمت وقالت:

- سأودعك على طريقة الفرنسيين..

ثم مالت عليه وطبعت على كل من وجنتيه قبلة.. قبلة نقية كقطرات الندى.. ثم رفعت إليه عينيها وقالت ودموعها تكاد تقفز من بين جفنيها:

- تذكرني دائمًا.. كصديقة لا كسكرتيرة!

* * *

ووصل من باريس إلى «شامونيكس» إلى جنات الله التي تجري من فوقها - لا من تحتها - الأنهار.. وقضى هناك أربعة أيام بين الثلج والجبال والغابات..

أربعة أيام كان له خلالها أربع قصص..

وفي اليوم الرابع والأخير، وكان يستحم في بحيرة هناك ترقد بين أحضان الجبال، إذ بوجه يقفز قبالته فجأة من تحت الماء، وإذا به يصيح: «ميشلين»..

وفي حلاوة المفاجآة أخذها بين ذراعيه وقبلها... وكانت القبلة الأولى.. سريعة... خاطفة... فيها من الصداقة أكثر مما فيها من حب.

ولم تقل أنها لحقت به، بل قالت إنها جاءت لتستريح، بعد أن بقي على انتهاء إجازتها خمسة أيام..

ولم يقل أين يقيم، ولا يسافر، ولا كيف يراها، بل اكتفى بأن دعاها إلى تناول الشاي فوق الجبل الأبيض، وتحادثا هناك عن جمال الطبيعة في رقة مفتعلة وابتسامات مترددة ونظرات تخشى أن تلتقي حتى لا تفتضح. ثم افترقا وقد غفر لنفسه القبلة الأولى!!

وقضى الليل مع بعض الأصدقاء، ثم عاد إلى غرفته بالفندق بعد منتصف الليل! وما كاد يغلق الباب وراءه حتى دخل الخادم يحمل زجاجة من الشمبانيا وكأسين، وقدم له ورقة مطوية قرأ فيها سطرًا واحدًا:

«كأس لك وكأس لمن تحب أن تدعو»!!

والإمضاء.. «ميشلين!..».

.....

.....

.....

وكانت تقيم في الحجرة المجاورة!!!

أميرة روسيا

.. وفي صباح اليوم التالي استقل القطار الذاهب إلى مرسيليا وجلس في مقعد يستعيد ذكرياته عن «شامونيكس»، وبين يديه الدموع التي ودعته بها «فتاة المارتنيك».

كان قد سمع عن شامونيكس من أصدقائه، وقرأ عنها في قاموس «ميشلان» الذي يصحب كل غريب في فرنسا.. إنها بلدة صغيرة ترقد فوق قمة الجبل الأبيض على حدود سويسرا وكأنها عذراء عارية تبحث عن الدفء بين الثلوج.. وقد اختارها من بين بلدان فرنسا لأن الجليد يكسوها صيفًا وشتاءً، وهو لم ير في حياته الجليد، ولم يتزحلق أبدًا على الثلج، وكان رأسه مليئًا بقصص قصها عليه الأستاذ التابعي عن حياته في سان موريتز بين الثلوج التي تذيب القلوب، فقرر أن يقضي الأسبوع الأخير الذي بقي له من رحلته في شامونيكس، وأن يقضيه في هدوء يريح شبابه الذي أنهكه بين لندن وباريس.. ويريح أعصابه التي مزقها في سبيل معرفة كل شيء وتذوق كل شيء.

قرر أن يعيش سبعة أيام مستلقيًا على مقعد مكتفيًا من الجمال بجمال الله، ومن الشباب باستعادة ذكرياته وذكريات التابعي. بل إنه أخذ معه زجاجات من عصير البرتقال ليغذي بها أعصابه، وعشرات من الأدوية المقوية والمطهرة للمصارين بعضها وصفها له أطباؤه وبعضها لم يعلم بها إلا من إعلانات الصحف.

ولكن هل رحم شبابه وأعصابه؟

* * *

إنه يذكر يومه الأول في شامونيكس لقد صعقه جمال الثلوج التي تغطي قمة الجبل، وكأنها عرش الله، وأذهلته هذه الأنهر الصغيرة التي تنحدر في شلالات لها خرير كأنه نغم المجهول في أذن الوجود، وقد أثار هذا الجمال وهذا النغم شبابه، وفتحا قلبه الذي كان ينوي أن يغلقه على ذكرياته ولو إلى حين..

وهو دائمًا ضعيف أمام الجمال الجديد عليه، فتت أعصابه وحطم إرادته، فنسي الهدوء الذي جاء من أجله، وزجاجات عصير البرتقال التي حملها معه، ومصارينه التي أتعبته وما زالت تتعبه.. نسي كل هذا وسار في أنحاء البلدة الصغيرة، يستجدي مغامرات الشباب.

وكان أهل البلدة - أو على الأصح فتياتها - كرامًا، فلم يبخلوا عليه بقلوبهن ولا بشبابهن، بل إنهن تنافسن في إكرامه، وعشقن هذه القصص التي كان يرويها لهن في جلساته بلغته الفرنسية الركيكة، وهي قصص أروع ما فيها أنها كاذبة.. قصص عن الشرق الذي يعيش بين أبخرة الحب، وعن رجال الشرق الذين وسعت قلوبهم حب السماء والأرض، وعن «الحريم» الذي تذوب فيه عشرات النساء تحت حرارة رجل واحد!

وكانت هذه تجارته.. يبيع القصص لقاء الأجساد.. ولكن من الرابح.. البائع أم المشتري؟ لقد ربحن شبابه، وساعة قضينها في دنيا خادعة صورتها لهن قصصه، ولم يخسرن سوى أتفه ما يملكن.. جسد تعودن أن يتمتعن به أكثر مما يحترمنه.

أما هو - البائع - فقد خسر شبابه، وخسر راحته، وخسر أعصابًا ضاعت في ضعف إرادته، ولم يربح سوى ساعة كذب فيها، وذكريات ليس من حقه اليوم أن يستعيدها.

وكانت ليلة صمم أن يوقف فيها تجارته وأن يعلن أن «المحل مغلق حتى صباح اليوم التالي»، فقد مل كثرة البيع والشراء، وأجاد المساومات حتى لم يعد لها لذة المغامرة..

وخشي إن قضى ليلته هذه في غرفته بالفندق أن يصيبه السأم أو أن تضعف إرادته فيفتح بابه لأول من يطرقه من زبائنه.. فخرج إلى حانة «الزنوج الخمسة».

إنها ليست حانة بل مرقص.. مرقص ضيق الجنبات لا يضم إلا عشر موائد ولا يقل عدد المترددين عليه في الليلة الواحدة أقل من مائتين.. ولك أن تتصور كيف يجتمع مائتا مخلوق حول عشر موائد صغيرة!!

وتعزف في هذا المرقص فرقة مكونة من زنوج أمريكيين تفح موسيقاهم كفحيح النار فتلهب القلوب والرؤوس وتذيب مدنية عشرين قرنًا مضت، فينقلب القوم إلى برابرة متوحشين يرقصون رقص القردة، ويدبون دبيب البهائم، ويصرخون صرخات الذئاب، وتختلط أجسادهم وتلتصق، وكأنهم قبيلة جنت في عبادة الشيطان..

دخل إلى تلك الحانة أو هذا المرقص، فتقدم إليه صاحب المحل يحييه ويسير بين يديه، والتفت إليه الخدم يبتسمون وينحنون، فقد عودهم منذ ثلاث ليال أن يعاملوه كأحد خلفاء هارون الرشيد لكثرة ما سكب من ماله ومن شبابه على موائدهم العشر..

وقام الزنوج الخمسة بمجرد أن دخل، وعزفوا أنشودة خاصة به عودهم أن يعزفوها له كلما رأوه، وهي أنشودة فرنسية مطلعها «إذا كنت تريد أن تعرف عيون حبيبتي، فانتظر الليل حين تلمع النجوم في سواده!».

وقد اختار هذه الأنشودة كنغم خاص يستقبل به كلما دخل «حانة أو مرقص»، لا لأنه معجب بها، ولا لأنه تربى على أن يستقبل بنغم خاص، ولكن لأنه رأى بعض أصحاب الملايين ورأى الوجيه عبد الله نجيب والوجيه فضل الله مرزا، يتبعان هذه العادة في باريس، فيمنحان رئيس الجوقة الموسيقية هبة من المال فيعزف لحنًا خاصًّا يلفت الأنظار إليهما.. وهو طول عمره يحقد على أولاد الذوات، فأراد أن يقنعهم - رغم أنه ليس ابن ذوات ولا صاحب ملايين - أنه يستطيع أن يلفت إليه الأنظار ويستطيع أن يأمر فيعزف له نغم خاص، لمجرد أنه يستطيع أن يمنح رئيس الجوقة خمسة آلاف فرنك لم يرثها ضمن ما ورثه عن أبيه، بل كسبها بعرق جبينه وعصارة روحه.

وجلس إلى «البار» يحتسي كأسًا، ويلتفت بين كل رشفة وأخرى ليحادث صديقًا طارئًا أو يرد ابتسامة باهتة لصديقة من صديقات الأمس.. وبين لفتاته لمح وجهًا متجهًا إليه..

إنها امرأة في الثلاثين من عمرها، في عينيها هدوء العاصفة وعلى شفتيها حمرة الليل.. وكانت تنظر إليه في احتقار!!

وتشاغل عنها وعاد إلى كأسه يرشفها وإلى من حوله يحادثهم ويبادلهم الابتسام، ثم وقعت عيناه عليها مرة ثانية.. على المرأة نفسها، وكانت لا تزال تنظر إليه... في احتقار!!

وعاد إلى التشاغل عنها، ثم عاد إلى التطلع إليها من خلال كأسه، فإذا بها لا تزال تنظر إليه.. وفي احتقار!!

ولم يتمالك غضبه وحاول أن يرد احتقارها باحتقار، ولكنها قابلت نظرته التي حاول أن يودعها جميع شتائم بلده من أول «يا سم كده» حتى «يا دم»، قابلتها بابتسامة ساخرة كانت صفعة ألهبت كرامته، فالتفت إلى «البارمان» وسأله في همس:

- هل تعرفها؟

وأجاب الرجل وهو ينظر من جانب عينه:

- لا.. ولكنها لن ترفض مراقصتك!!

وأزاح الكأس من أمامه ثم تقدم إليها وقد نسي وعده بأن «المحل مغلق حتى صباح اليوم التالي» وانحنى أمامها وطلب إليها أن ترقص معه، فلم تقل «بكل سرور» كما هي العادة ولم تقل «لا ومتشكرة» كما كان ينتظر، بل تركته أمامها لحظات وهي تنظر إليه بنفس الاحتقار الذي رآه في عينيها لأول مرة، وعلى شفتيها نفس الابتسامة التي اعتبرها صفعة لكرامته، ثم قامت في تكاسل واقتربت منه ليخاصرها.

وقال لها والموسيقى تضج من حولها حتى اضطر أن يصرخ في أذنيها ليسمعها صوته:

- لقد كنت تنظرين إليّ قبل أن أطلبك للرقص؟

قالت في هدوء:

- هذا صحيح.

وقال مبتسمًا وهو يحاول أن يمهد لإحدى قصصه التي يتاجر بها:

- هل كنت معجبة بي إلى هذا الحد؟!

قالت.. في هدوء أيضًا:

- لقد كنت أحتقرك يا صغيري!

وتوقف عن الرقص وصاح وقد طغت عليه نعرته الشرقية:

- كيف تجرئين!

ثم حاول أن يسحبها من يدها إلى خارج حلقة الرقص وهو يتظاهر بأنه ينوي أن يقتلها أو على الأقل يصفعها، ولكنها جذبته إليها في قوة وهي تقول:

- يا صغيري لقد حرمتني الدنيا كثيرًا من الملذات، فلا تحرمني أنت أيضًا من لذة احتقارك!!

وأحس أن هذه المرأة لا يمكن أن تؤخذ بالقوة، ولا يمكن أن يرد إهانتها بصفعها أو بقتلها.. أحس أنها امرأة أقوى منه، وأقوى من أي امرأة مرت في حياته وأنها حصن مغلق على سر.. قد يكون سر مأساة وقد يكون سر الحياة.. ومن يعلم فربما كانت أميرة من أميرات الدنيا التائهات في مراقص فرنسا..

فعاد إليها وهو يغتصب ابتسامة من بين أسنانه، وقال في صوت حاول أن يكون هادئًا:

- إني لن أحرمك لذة احتقاري، ولكن هل أستطيع أن أعلم سر هذا الاحتقار حتى أشاركك لذته!!

ضحكت وقالت:

- إني أحتقرك، لأنه يخيل إليّ أنك طفل مدلل نشأت والذهب يجري بين أصابعك وجئت إلى هنا لتبعثر ما بقي في شبابك من شباب وتبعثر معه ملايينك.. إني أحتقرك لأني أعرف شابًّا في سنك يشقى ويكد ليطعم أمًّا وأبًا وثلاثة إخوة.. أحتقرك لأنك عالة على الدنيا، تجني منها ولا تعطيها شيئًا، وأحتقرك لأنك مغفل قد جعلت في كل جيب من جيوبك ثقبًا.. وأحتقرك أيضًا لأنك تفعل كل ذلك كأنه شيء طارئ عليك ويخيل إليّ أنك «مُحدث نعمة» أو أن أباك من أثرياء الحرب، وقد راقبتك ثلاث ليال فاقتنعت أن تصرفاتك كلها لا تدل على أنك تعودت النعمة، ولا تدل على أنك تساوي شيئًا بغير نقودك.. وثق إني لست وحدي التي أحتقرك، بل أيضًا صاحب المحل الذي انحنى أمامك، والخدم الذين وقفوا بين يديك، والزنوج الخمسة الذين عزفوا لك هذا اللحن السخيف!!

قالت كل هذا في هدوء وبلا خوف من أن يصفعها، أو أنها كانت واثقة من أنه لو صفعها فلن يزيدها إلا شرفًا!

قالت هذا، وكأنه موضوع عادي يصلح للمناقشة بينه وبينها لا كأنه إهانة لا تغتفر.. وقد تقبل منها كلامها دون أن يثور ودون أن يحس في نفسه حاجة للثورة، بل إنه تبسم في ارتياح وكأن كرامته قد ردت إليه غير مجرحة، ثم قال ساخرًا منها:

- وأنت ألست غنية، ألست صاحبة ملايين، أو على الأقل أميرة من الأميرات؟

- وهل يبدو عليّ شيء من هذا؟

- لو كانت الملايين بالجمال.. فثقي بأنك أغنى صاحبات الملايين!

- إني أكتفي بأن تكون لديّ ثروتك.. هل تقبل أن تمنحني ثروتك؟

- بكل سرور.. لو كان لديّ ثروة..

- هل تِعني أنك لِست غنيّا؟

- إني أفقر من أي فقير في مصر..

- لابد وأن فقراء مصر من أصحاب الملايين!!

- صدقيني، إني صحفي أعيش بقلمي، وما أصرفه هنا هو «تحويش» العمر كله، وأصرفه لأني مثلك أحتقر الأغنياء وقد بلغ من احتقاري لهم إني أحاول أن أكون مثلهم، فكلما تجمع لديّ «قرشين» قذفت بهما في وجه الدنيا كما ترين!!!

ورأى ابتسامة رضاء تعلو شفتيها فجذبها من يدها خارج حلقة الرقص وهو يقول:

- تعالي أقص عليك قصتي..

وأخذها في سيارة - كان أحد أصدقائه قد تركها له - إلى الغابة التي تقع في أطراف المدينة.. ولم تكن قد مانعت وهو يسحبها إلى السيارة ولم تمانع وهو يجلسها بجانبه، بل ولم تسأله إلى أين.. ولم تحتج وهي تراه يتجه نحو الغابة التي لا تضم في هذه الساعة من الليل إلا كل رجل وامرأة خافا من الناس ولم يخافا من الله.

كانت واثقة من نفسها إلى حد كبير وكانت تعامله كطفل يعبث بالدنيا، ولكن عندما أوقف سيارته تحت الشجر، والثلج الأبيض حولهما، وصوت الحياة ينبعث من خرير الأنهر، والدنيا صامتة إلا من همسات الشيطان.. بدأت تخاف وبدأت تضطرب وبدأت تحس أنها امرأة.. وأن الذي معها رجل..

وحاولت أن تتحدث ولكنها عادت وصمتت.. وحاول أن يتسلل بيده إلى شعرها الأسود الفاحم ليعبث فيه بأصابعه، ولكنه عاد فسحب يده...

وطال الصمت بينهما، وكان صمتًا تزيده كل دقيقة خطورة.. وشعر الاثنان أن هذا الصمت سيؤدي إلى عاصفة، فقاومت حتى قطعته في صوت يحشرجه كبت شديد:

- لقد لفتّ نظري لأنك كنت أصغر من في المرقص سنًّا فرثيت لك..

- خبريني.. لِمَ تحتقرين، أنت وحدك من دون النساء، أصحاب الملايين؟

- ربما لأني فقدت ثروتي..

- هل كان لديك ثروة؟!....

- كان يمكن أن تكون لديّ ثروة.. ولا تضحك عندما أقول لك إني أميرة.. أميرة من بيت مالك عريق.

- أميرة!!!...

قالها مشدوهًا، وبدأ يعتدل في جلسته ليستدرجها إلى قصة طويلة يريد أن يسمعها ، فهو يحب قصص الأميرات، وطول عمره رغم فقره ورغم ثورته على التقاليد يحلم أن تقع بين يديه أميرة ليرضي بها خيالات صبيانية كانت تطوف برأسه منذ كان صغيرًا يقرأ قصة الشاطر حسن وبنت السلطان.

وهذه التي تجلس بجانبه أميرة تحمل لقبًا كبيرًا عريضًا، وبين يديها تاريخ دولة بل تاريخ العالم بأسره.. ولكنها للأسف أميرة بلا إمارة وبلا مملكة.. أميرة روسية، فر أبوها خلال الثورة الحمراء وعاش في باريس يبيع نوعًا من الشراب الحلو على عربة يد يسحبها في شارع سان ميشيل بالحي اللاتيني.. وابنته صاحبة السمو ماريا بنشفسكي تربت ونشأت في الفقر ولا تملك من ذكريات الإمارة إلّا حلية ماسية تعلقها في عنقها وتخفيها بين نهديها تحت ثيابها..

وقد مات أبوها، وتزوجت من ابن عمها الأمير «بيتر» - وبقية اسمه يتكون من أكثر من خمسة عشر حرفًا - وصاحب السمو زوجها يشتغل سائق تاكسي.. وابن عمها الثاني يشتغل «جرسونًا» في مرقص الزنوج الخمسة، وهو الذي دعاها إلى المرقص عندما جاءت وزوجها وأولادها الثلاثة إلى شامونيكس لقضاء إجازة العام..

والقصة لها تفصيل، ولها حوادث، وفيها دموع وجوع وتشرد، وقد قال لها بعد أن أتمت قصتها ودموعها بين عينيها:

- يخيل إليّ أن ما عانيته من فقر وتشرد قد جعل صاحبة السمو تعتنق الشيوعية وتحقد على الرأسمالية..

قالت:

- إن الفقراء يعتنقون الشيوعية ليصبحوا أغنياء، أما نحن فنتمسك بألقابنا الوهمية لنعيش كرماء!!

- ولكن لماذا احتقرتني وأنا أبعثر نقودي على موائد الزنوج الخمسة؟

- لأن كل ما بقي لي هو أن أحتقر الأغنياء لأنهم جميعًا من الرعاع اللصوص نهازي الفرص، ولا يجري في دم واحد منهم قطرة من الشرف.. إنهم يشترون

الدنيا بذهبهم أما نحن فكنا نشتريها بالمجد والسيف والدم.. إنهم يدفعون من أموالهم لأنهم يعلمون أنهم إن لم يدفعوا فستنقلب عليهم الدنيا، أما نحن فكان يكفي أن نبتسم فتبتسم الدنيا، لأن الدنيا كانت تعلم أنها مدينة بوجودها إلينا!!

قالتها وأنفها مرفوع إلى السماء، ثم ساد الصمت بينهما..

وبدأ الشيطان يهمس في أذنيه من جديد: «إن بين يديك أميرة فلِمَ لا تتذوق الأميرات؟!».

وبدأت يده تتسلل نحو شعرها الفاحم.. وكانت ساهمة تنظر إلى الفضاء من خلال زجاج السيارة.. ثم بدأ يقترب منها ويمر بيده فوق عنقها العاجي الشامخ.. وكانت صامتة وعلى شفتيها همسة محتبسة.. ثم جذب رأسها الجميل إلى الخلف وأطل عليها بشفتيه ليصمها بقبلته، قبلة النذل الذي يرضي نزواته.. ولكنها فجأة أزاحته من فوق صدرها وقالت وهي تمر بيدها على جبينها كمن أفاقت من حلم مزعج أو كمن تطرد الشيطان من رأسها.. قالت:

- دعني إلى الغد..

قال:

- إننا في الشرق نقول إن الغد لا يأتي أبدًا!!

قالت:

- ولكننا في روسيا نثق بأن الغد آت لا ريب فيه!!

وأوصلها إلى فندقها والشيطان من ورائها يبكي خيبة الأمل.. وافترقا على موعد في الصباح.

* * *

وجاءت صاحبة السمو ولكنها.. جاءت ومعها زوجها وأولادها الثلاثة!!

وعندما قدمتهم إليه، قالت للعائلة الإمبراطورية في بساطة وهي تشير إليه كأنه خادمها:

- هذا المسيو هو الذي أوصلني إلى الفندق ليلة أمس.

لم تقل الذي «تفضل بتوصيلي» ولولا بقية من أدب لقالت: «الذي نال شرف توصيل أحد أفراد عائلة رومانوف الروسية!!».

وقضى يومه في ركاب العائلة المالكة الروسية.. يدفع الحساب ويردونه له قصصًا عن عالم ضاع.. قصصًا يقصونها عليه في كبرياء تغيظ، وأنفة متعالية، وكأنه أحد خدام البلاط الإمبراطوري!!

فتاة من لندن

ووصل إلى القاهرة.. فوجد في انتظاره رسالة من لندن.. رسالة تقول فيها صاحبتها: «أرجوك أن تبحث لي تحت أقدام أبي الهول عن طريق الخلاص. واسأل شيوخ المساجد عن حكمة تهديني إلى النعيم.. فقد كدت أجن، بل لقد جننت»!

وهذه هي قصة صاحبة الرسالة..

عندما انتهت الحرب سرحت من فرقة مجندات سلاح الطيران «Waafs». سرحت رغم أنفها فقد كانت سعيدة بين زميلاتها وأنستها حياة الثكنات ذكرى رجل كانت على وشك الزواج به، وفقدته بعد أن أعدت ثوب الزفاف، إذ اكتشفت أنه وعد ثلاثًا من صديقاتها بالزواج وأن الثلاث قد أعددن ثياب الزفاف!!

وقد اشتهرت خلال الحرب بمهارتها في قيادة السيارات، وأرسل لها ملك إنجلترا خطاب شكر على شجاعتها والخدمات التي أدتها لوطنها.. ولكنها عندما تريك هذا الخطاب تضحك ضحكات عصبية وتقول: «إني أنا التي يجب أن تشكر الملك، فإني لا أستطيع أن أعيش دون قيادة سيارة، وقد أعطاني جلالته سيارة لأقودها مدى خمس سنوات!!».

كانت تقود سيارتها - أو على الأصح سيارة الجيش - في سرعة مجنونة وكانت تفقد الإحساس بنفسها عندما تجلس إلى عجلة القيادة وتسلم رأسها إلى الريح الباردة لتطفئ النار التي تندلع بين أفكارها السود، وكانت ضجة الموتور تطغى على ضجة قلبها التي تطن في أذنها كلما انفردت بنفسها أو أسلمت نفسها لذكرياتها.. وهي تعترف أنها لم تكن شجاعة ولا جريئة عندما كانت تقود سيارتها في ظلام لندن خلال ليالي الغارات، بل كانت تحاول الانتحار، فهي تكره الشعور بالحياة وتكره أن يكون لها قلب يحس، وذاكرة تستعيد بها الماضي، ومستقبل تعيش له.. وهي تريد أن تموت.. وقد شكرها الملك والإمبراطور لأنها فشلت في الانتحار!!

وكانت تكره أن يمنحوها إجازة خلال الحرب، ولكنهم عندما كانوا يرغمونها على الراحة، كانت تفني نفسها فيما هو شرّ من الحرب، كانت تترك الثكنة وتلجأ إلى لندن، وهناك تذيب روحها في أنفاس رجل أو في كأس أو على مائدة قمار.. وقد حصلت خلال مغامراتها هذه على أكثر من وعد بالزواج.. فهذا رجل فرنسي لا يزال إلى اليوم يرسل لها في كل يوم خطابًا يناديها فيه: «يا حلمي الجميل».. وتقرأ الخطاب، ثم تمزقه وهي تقول: «يا للفرنسيين من أدباء!!».

وهذا طيار إنجليزي برتبة كابتن نقل أخيرًا إلى كندا يطلب يدها في برقية.. وآخر أسترالي.. ورابع هندي.. وخامس.. وكلهم يريدها، فهي جميلة، في لون بشرتها مرح الربيع، وفي ضحكاتها رنين أجراس الجنة، وفي عينيها الزرقاوين صخب أمواج المحيط، وفي جفونها طمأنينة شاطئ النجاة!!..

وهي رغم نزواتها لا تتبذل ولا تنسى أصلها الطيب ولا مكانة عائلتها التي تتفرع في نيوزلاندا وكندا والولايات المتحدة.. وهي دائمًا محترمة، فالكأس في يدها لها روعة الصليب في يد القسيس، وعندما تهب جسدها لرجل تهبه كملكة تتعطف وتتكرم وتأمر فتطاع!

وتبدأ القصة بعد ما خلعت ثيابها العسكرية وعادت إلى ثيابها المدنية، فقد رفضت يومها أن تعود إلى بلدها في مقاطعة اسكس لتعيش مع أمها وأخواتها.. وأقامت في لندن تبحث عن عمل.

ومن السهل أن تجد لك عملًا في لندن ولكن من المحال أن تجد لك مسكنًا، فأزمة المساكن هناك أشد وأقسى من أزمة الأخلاق في مصر!!

وقد أقامت فترة تنتقل بين الفنادق ولكن مرتبها كان أضعف من أن يتحمل حياة فندق في لندن.. إلى أن قرأت يومًا إعلانًا في الصحف عن رجل يريد سكرتيرة ويقدم لها مع مرتبها مسكنًا.. فلبت نداء الرجل!!

وكانت الصدمة الأولى عندما رأته لأول مرة..

إنه رجل مريض مشلول لا يقوم ولا يقعد إلا مستندًا على ذراع، ولا يأكل إلا من يد ترفع الغذاء إلى فمه..

ولكنها نسيت هذه الصورة البشعة للرجل عندما بدأ يحدثها، فهو ذكي، خارق الذكاء... ومرح يبعث مرحه في جسده المشلول الهامد الروح والحياة، ثم هناك عيناه.. عيناه اللتان تركز فيهما كل ما فقده من قوة.. عيناه التي حاولت عندما التقت بهما أن تضحك فلم تستطع، وحاولت أن تبكي فلم تستطع، وحاولت أن تفر تسمرت أمامه!

وهو متزوج وامرأته عجوز غبية وقحة، كل ما فيها من خير أنها تعتني به في مرضه وتناوله الدواء في موعده وتقوم على خدمته كممرضة أو كخادمة، لا كزوجة، فهي لا تستطيع أن تفهمه ولا تستطيع أن تعينه في مقاومته لمرضه ولا تستطيع أن تبادله أفكاره أو تقدر علمه الواسع وعبقريته الفذة، التي شهد له بها بلده، كما كانت مسز روزفلت تعين زوجها حتى وصلت به إلى قمة العالم، بل على العكس فهي دائمًا تحاول أن تفقده روح مقاومته - هذه المقاومة التي

لولاها لما عاش - وتحاول دائمًا أن تجرح إحساسه وأن تعيّره بمرضه، وقد دخلت عليه يومًا وهي تصيح: «هل تعلم ماذا حدث اليوم عند خروجك من مكتبك؟ لقد ظنك طفلان أنك شحاذ، وحاولا أن يحسنا إليك بشلن لولا أني منعتهما»، وهي قسوة منها تحملها الرجل وتقبلها بابتسامة ساخرة ورد قائلًا: «إنك فوّتّ عليّ شلنًا»!!

هذا هو الرجل وزوجته، وقد قبلت الفتاة أن تعيش بينهما كسكرتيرة، فكانت تجلس إليه طول اليوم يملي عليها كتبه وأبحاثه، فإذا ما انتهى بدأت تقرأ له وتقرأ معه.

ولم يكن هذا كل شيء، فقد كانت تصحبه في سيارته إلى الريف في يوم السبت من كل أسبوع، ويقضيان هناك إجازة «الويك إند» وكان في هذه الفترات يحدثها.. وكان حديثه ناعمًا هادئًا مقنعًا.. يحدثها عن نفسه وعن العالم في أمسه ويومه وغده، حديث رجل درس وبحث ودقق وحقق، ولم تحاول أبدًا أن تناقشه حديثه، أو ترد عليه كلمته، بل كانت تنصت إليه وهي في شبه حلم، ويصل صوته العميق إلى أذنيها كأنه صوت جبريل يأتيها من السماء ليهديها إلى الصراط المستقيم!

ووجدت نفسها تنتقل من العالم المهووس الذي نسيت فيه نفسها إلى عالم تحس فيه بنفسها ولا تحس به، وتعلمت في عالمها الجديد أن تقود السيارة في بطء هادئ فلم تعد في حاجة إلى الهواء البارد لتطفئ سخونة رأسها، ولا إلى ضجيج الموتور ليطغى على ضجيج قلبها.

وكل ما أصبحت في حاجة إليه هو صوته وحديثه.. حديثه الذي تقتنع به دون أن تفهمه، وصوته الذي يريح أعصابها دون أن تميزه...

وبدأت شخصيتها تضمحل وتفنى بجانب شخصية سيدها.. بدأت تحس أنها تلميذة جاهلة بجانب أستاذها.. عبدة ذليلة بجانب أميرها.

واعترفت بينها وبين نفسها أنها أصبحت بأعصابها وقلبها وأفكارها مشدودة إلى هاتين العينين النفاذتين اللتين تعذبانها بقدر ما تسعدانها، وتبعدانها بقدر ما تقربانها...

ولكن إلى أين المصير؟!

ماذا بعد؟!

إنها تعلم أنها فقدت شخصيتها وأنها فقدت إرادتها، ليس فقط أمام الرجل بل أمام كل الناس.. فهي إذا ما بدأت تروي قصة توقفت دون أن تتمها، لسبب لا تدريه.. وإذا قالت «نعم» عادت فقالت «لا»، ثم تتردد بين «لا» و «نعم».. وإذا حكمت على إنسان حكمًا عادت فنقضته، ثم نقضت ما نقضته.. وإذا ضحكت بكت وإذا بكت ضحكت.. وأصبحت لا تستريح إلا إذا ركعت تحت أقدام الجسد المشلول..

ولكن هل ستعيش حياتها هكذا وتخسر شبابها دون مقاومة، أم هل تتزوجه؟!!

وهل يحبها؟!

نعم يحبها.. ويحبها عدد الرمل والحصى والتراب... وهي ترى حبه في عينيه، وترى غيرته فيهما عندما تتحادث مع رجل آخر وخاصة إذا كان شابًّا صحيحًا معافى، وترى هيامه في هذا العمل الطويل الذي ينهكها به دون أن يكون في حاجة إليه.. فقط ليجلسها بجانبه ويبعدها عن أصدقائها..

وهي تذكر يوم مالت عليه لتعدل جسده الجامد في جلسته فالتقت عيناها بعينيه ولامست بشرتها دون قصد بشرته.. لقد رأته ساعتها يستجدي لأول مرة، وكان يستجدي قبلة، وكادت رغم إرادتها تهبها له لولا أنها قاومت حتى منعت شفتيها عن شفتيه ولم يكن بينهما سوى قيد شعرة.. وقد أنهكتها يومها مقاومتها حتى اضطرت أن تختفي عن عينيه طول اليوم..

إنه رجل.. رجل كامل رغم مرضه.. كامل الحس والأعصاب ولكن هل هي تحبه حتى تتزوجه إذا فرض وطلبها للزواج؟ هل تحب رأسًا بلا جسد وعينين معلقتين في الهواء؟!

لا تدري.. لا تدري أين هي منه ولا أين هو منها، وهي تبكي كلما طرحت على نفسها هذا السؤال، تبكي، ثم تضحك، لأنها لا تدري أتبكي أم تضحك؟ إنها ضحية لعنة حلت عليها، وضحية سحر أسود يسري في دمائها، وسم أزرق سمم روحها..

إنها تائهة لا تدري أين هي ولا أين المصير، تائهة وسط زحام عواطفها، شاردة في عالم لا ترى فيه إلا عينين، شعاعهما سياط تلهبها، وبريقهما نار تحرقها!

* * *

إلى أن قابلته.. غريبًا يجوب لندن وقد تعب منها، وكان يحاول نسيان تعبه، وكانت هي تحاول نسيان عواطفها المشردة فجمعتهما محاولة النسيان في

ذكرى لا تنسى..

وكان أول ما راعه منها ترددها.. ترددها حتى في الحكم عليه والثقة به..

كانت تقول له: «هل أنت ملاك في ثياب شيطان أم شيطان في ثياب ملاك؟».

وكان أحيانًا ينظر في عينيها طويلًا فتصيح فيه: «لماذا تنظر إليّ هكذا؟ أتحبني أم تسخر مني؟».

ولم تكن تنتظر أن يجيبها، بل كانت تجيب نفسها وهي تهز كتفيها وتلقي على الأرض ابتسامة مائعة قائلة: «لا أدري!!»، ثم تنتقل إلى موضوع آخر..

وكانت تقول «لا أدري» كلما وجهت لها سؤالًا، وكلما سألتها رأيها، وكلما بدأت تقص عليك قصة، وكلما أردت أن تعرف ماضيها أو حاضرها أو مستقبلها.

وقد قصت عليه قصتها بعد الكأس العاشرة.. وكانت تقصها والدمع في عينيها، وظل ابتسامة باهتة فوق شفتيها.. ابتسامة المحكوم عليه بالإعدام ظلمًا، فيعتلي خشبة المشنقة ساخرًا من العالم صافحًا عن الظالم!..

وكانت تتوقف عن حديثها لتتناول كأسها، ثم ترسل ضحكة مجنونة تعود بعدها إلى صمت طويل حزين.. ثم تبدأ حديثها من جديد..

ولم يحاول ليلتها أن يناقشها عواطفها أو يقول لها رأيه في طريق خلاصها. فقد كان رأسها غارقًا في أبخرة الخمر وأعصابها قد حطمت على حافة الكأس، ولكن حدث في تلك الليلة أن صحبها في سيارة أجرة إلى منزلها الذي تقيم فيه مع الرجل المشلول وزوجته، وكانت خلال الطريق تميل على صدره أحيانًا ثم تبتعد عنه، وترفع إليه شفتيها ثم تنفر منه، وتنظر إليه طويلًا ثم تهز رأسها في عصبية وجنون.. كانت تحاول أن تقنع نفسها بشيء لا تستطيع الاقتناع به..

وعندما وقفت السيارة أمام المنزل أخذت تتلفت حولها كأنها تبحث عن الخلاص، ثم ارتمت بين أحضانه ولفت ذراعيها حول عنقه، وأخذت تعبث بأصابعها في شعر رأسه، ثم قالت في صوت متهدج مبهور:

- قبلني.. قبلني أرجوك.. إني جميلة.. إني أعلم أني جميلة وإني أعجبك.. إنك تحبني قل لي إنك تحبني.. وأنا أحبك وأعبدك.. أرجوك قبلني.. اعصرني.. إنكم تجيدون الحب في مصر.. أرني خبرتك أيها المصري!!

ولم يقبلها، ولم يقل لها إنه يحبها إنما ربت على ظهرها في حنان، فقد كان يعلم أنها لا تريد حبه، ولا تريد قبلاته، إنما كانت تبحث في أحضانه عن خلاصها

من الرجل الآخر.. واكتفى أن يقول لها وهو يمسح بيده على جبينها:

- اهدئي.. وسأراك غدًا..

ولكنها لم تهدأ، بل أخذت تبكي كطفلة ضالة، وصاحت:

- لا، إنك لن تفارقني.. خذني معك إلى بيتك.. إلى مصر.. إلى الجنة.. إلى جهنم.. ولكن لا تتركني.. أرجوك.. إنك رجل طيب.. لا تتركني!!

وأمر السائق أن يعود بهما إلى فندقه ولكن السيارة لم تكد تتحرك حتى أطلت برأسها من النافذة ونظرت إلى بيتها، ثم صرخت صرخة مكتومة وصاحت في السائق «قف»!. وجمعت حوائجها المبعثرة داخل السيارة وجففت دموعها، ثم نزلت وهي تقول «انظر.. إنه ينتظرني»!!

ونظر إلى حيث أشارت..

كان الطريق مظلمًا وكانت المنازل التي تحيط به قاتمة حزينة. ولم يكن هناك سوى نافذة واحدة ينبعث منها الضوء رأى خلالها ظل رجل يجلس على مقعد متحرك. ورأى - رغم بعد المسافة - عينيه.. وكانتا تقذفان جمرًا على السيارة ومن فيها!!

وعاد وحيدًا إلى الفندق..

ورآها في مساء اليوم التالي، وكانت جميلة هادئة في نظر من لا يعرفها، ثائرة مترددة في نظر من يعرفها ويعرف قصتها.. وكانت تحاول أن تخفي ثورتها وترددها بابتسامة صاخبة، ولكنها كانت ابتسامة تفضح عدم اتزانها..

وحاولت ألا تعود إلى حديث الأمس، ولكنها لم تستطع وبدأت تقص له ما حدث منذ غادرته في السيارة..

لقد سألها عن الشاب الذي كان يصحبها وعندما علم باسمه لم يطعن فيه ولا في صفاته، بل على العكس قال عنه إنه شاب مهذب ناجح، ولكنه فقط متزوج وينتظر مولودًا!!

وقد فهمت ما كان يرمي إليه الرجل، فهمت أنه لا يريدها أن تقابل هذا الشاب لا لأنه يغار منه، بل لأنه - أي هذا الشاب - متزوج وينتظر مولودًا!!

وقد عذبها ليلتها، على طريقته الخاصة، فقد طلب إليها أن تجلس إلى آلتها الكاتبة ليملي عليها بحثًا مستعجلًا، وكان يعلم أنها متعبة وأنها مخمورة، ولكنه

لم يرحمها، بل وضعها أمامه ونظرات عينيه تفتت أعصابها، ورنين صوته العميق وهو يملي كلماته يهوي على رأسها فيحطمه.. حتى ارتمت فوق آلتها وراحت في نوم عميق، لا تدري أكان نومًا أم كان إغماء!..

ولم يحاول أن يوقظها لتذهب إلى فراشها، بل ظل حتى الصباح جالسًا على مقعده، وهي أمامه منطرحة فوق المائدة التي تحمل آلتها الكاتبة..

وهي الآن تسأله - تسأل صديقها المصري - ماذا تفعل؟ وكيف توقظ نفسها من هذا الحلم المزعج الذي تعيش فيه؟

فأجابها بأن الرجل ليست فيه القوة الغامضة التي تتصورها، وإنما هي فتاة طيبة القلب أشفقت عليه عندما رأته لأول مرة وتمادت في شفقتها حتى ضعفت له، تمامًا كما فعل اليهود، فقد أخضعوا العالم لهم بإثارة الشفقة عليهم، وكما تفعل كل أقلية ضعيفة في أي بلد من بلاد العالم، تشكو من اضطهاد الأغلبية لها، وتستمر في شكواها حتى ترق لها القلوب، ويجتمع لها العالم مدافعًا عنها، وينتهي الأمر بأن تضطهد الأقلية الأغلبية وتبدأ الأغلبية في الشكوى!

إن هذا الرجل هو الأقلية التي تضطهد الأغلبية.. هو الضعف الذي انتصر على القوة.. هو القبح الذي سيطر على الجمال، ولو لم تضطهده زوجته وتشعره في كل لحظة بضعفه وتعيره بمرضه لاضطهدها هو، وصب عليها حقده على العالم الذي حرمه من المتعة، بل حقده على الله الذي شل جسده!

ونظر إليها محاولًا أن يهبها القوة وأن ينصرها على ضعفها، ويقنعها بحديثه، وقال وهو يضغط على كلماته:

- قولي له «لا» مرة واحدة، حاولي أن تشعريه بقوتك أمام ضعفه.. وأن تجرحي إحساسه وتنزليه عن عرش الطغاة.. قولي له إنه مشلول وإنه مريض وإن مرضه قد خلق فيه الحقد والكراهية وحب الطغيان، وإنه لذلك يريد أن يطغى عليك ويريد أن يضطهدك لا لشيء إلا لأنك كاملة الجسم وهو ناقصه، وأنك جميلة وهو مشوه.. قولي له ذلك مرة واحدة وبعدها ستضمحل شخصيته أمامك وستطهرين دمك وأفكارك من سمه الأسود وسحره الأزرق، ستشعرين بعدها أنك سيدته وسيلعق حذاءك كالكلب يطلب رحمتك ومعونتك وشفقتك.. حاولي.. حاولي..

وبعد أيام جاءته ممتقعة الوجه مضطربة، في عينيها نظرات تائهة، لا تستقر، وعلى شفتيها رعشة كرعشة شفتي الظمآن، وقالت في وجوم واستسلام:

- لقد قلت له «لا».. وقلت له إنه مشلول وإني أقوى منه.. وصحت في وجهه إنه يريد أن يضطهدني ويعذبني ليشبع في نفسه شهوة الانتقام من الحياة ومن الجمال..

- وماذا حدث؟..

لقد سكت ولم يجب.. وسكت سكوتًا مخيفًا جبارًا طاغيًا..

- ثم ماذا حدث؟..

- ركعت تحت قدميه وقبلت كلتا يديه وطلبت منه الصفح.. وقد صفح... وشكر الله!

في حانة الزنوج الخمسة

وهذه قصة التقطتها من إحدى الحانات خلال رحلتي إلى فرنسا.. وهي قصة قد تكون واقعية في كل حرف منها، وقد تكون خيالية متناهية في الخيال...

* * *

إن كل من يلج حانة الزنوج الخمسة إما أن يكون «مليونيرًا»، وإما أن يكون محتالًا.. وكل امرأة تغشاها إما أن تكون وريثة ملايين، أو صاحبة لقب.. أو بائعة جسد.. وكل هؤلاء النساء والرجال يشربون «البنش» أو «الأبسنت» فيترنحون بعد الكأس الأولى، ويصيبهم الجنون بعد الكأس الثانية، ويذيبون الحياة في الكأس الثالثة.

وكنا - أنا وهو - العاقلين الوحيدين بين رواد الحانة في تلك الليلة.. وربما دهش كل منا وهو يرى الآخر عاقلًا في هذا العالم المجنون، فرفع كأسه وحياني من بعيد، فاقتربت منه وقلت بالإنجليزية:

- إن هذا المكان كأنه جهنم!

فأجاب بإنجليزية أمريكية:

- إن الناس تمل الجنة أحيانًا فلا تجد إلا الجحيم تحرق فيه الملل.. وإلا فكيف يعقل أن نترك الجمال الذي سخا به الله على هذه القرية ونجتمع في هذا الصندوق المظلم لنختنق فيه؟!

قلت:

- إني سعيد أن وجدت شخصًا يتكلم الإنجليزية، فقد تعب لساني من اللغة الفرنسية، وهي لغة لا أجيدها.

وقال:

- أنت أسعد مني. فإني لا أعرف من الفرنسية إلا عشر كلمات.. ولكن يخيل إليّ أحيانًا أن الإنسان يستطيع أن يستغني عن جميع اللغات!..

وصمت قليلًا، ثم قال:

- هل تريد أن تسمع قصة؟

وبدأ يقص قصته..

كان يقضي صيف عام 1936 في بلدة «أنسين» بفرنسا.. وكان لا يعرف من اللغة الفرنسية حتى الكلمات العشر التي يعرفها الآن.. وإنما تعود أن يقوم برحلاته إلى أوربا منذ أصبح صاحب ملايين، معتمدًا على شركات السياحة، التي تضع تحت أمره دائمًا سكرتيرًا يتخاطب عنه مع الناس الذين لا يتكلمون الإنجليزية.

وذات مساء قلق في نومه، فخرج ليسير على شاطئ البحيرة.

كانت أشعة القمر تستحم في ماء البحيرة كأنها آلهة من نور تهتز طربًا وهي تلاعب ظلال الأشجار، وقد وقفت جبال الألب ترقب الآلهة اللاهية في غضب مفتعل وقسوة حنون.

وجلس على مرتفع يطل على البحيرة يشهد كل هذا الجمال، وقد استند إلى شجرة عملاقة تخفيه عن أعين من يمر أمامه.

ومرت أمامه فتاة وفتى، ثم جلسا بعيدين عنه دون أن يلمحاه فابتسم، فقد كان يعرف الفتاة، إنها خادمة بالفندق الذي يقيم فيه، أما الفتى فهيأته تدل على أنه من الأوباش..

وبدأ يسمع همساتهما، وكانت آداب اللياقة تقتضيه أن يبتعد وألا يسترق السمع، ولكنه كان يجهل الفرنسية - التي يتحادثان بها - جهلًا تامًّا، فلن يضيرهما أن يسمع حديثهما ما دام لن يفهمه ولن يضيرهما أن يرقبهما ما داما لن يلمحاه، وأحس أن جمال الطبيعة الذي يحيط به لن يكمل إلا إذا ارتفعت في جنباته أنغام الحب التي يتبادلها هذا الفتى وهذه الفتاة.

وبدأ الفتى يتكلم.. كان يتكلم بصوت هامس كأنه يرتل صلاة حفظها عن ظهر قلب، وكانت الفتاة تستمع إليه ورأسها إلى الأرض وقد تدلت خصلة من شعرها على عينيها وهي تعبث بأصابعها في الحشائش النابتة على الأرض، واستمر الفتى في همسه، وهو يقترب برأسه من الفتاة أحيانًا حتى لتكاد شفتاه تلمسان وجنتيها، ويبتعد عنها أحيانًا ليحرك يديه في الهواء، كأنه يشرح خطة يريد تأكيدها.

وفجأة رفعت الفتاة رأسها، وقالت وكأنها تصد عنها شبحًا مخيفًا: «لا.. لا».. ثم بدأت تتكلم في صوت خفيض، وكأنها تحاول أن تقنعه بأن يعدل عن خطة يعرضها عليها..

وارتفع صوت الفتى في كلمة واحدة كأنها صفعة أراد أن يصفع بها فتاته، ثم تمالك أعصابه وخفض من صوته وبدأ يهمس من جديد، والفتاة بين كل فترة وأخرى تهز رأسها وتقول في صوت ضعيف تحاول به أن تستدر رحمته: «لا.. لا»..

وأخيرا انتفض الرجل واقفًا وأمسك بذراع الفتاة وأخذ يضغط عليها حتى صرخت من الألم وهي تردد صائحة: «لا.. لا».. ثم ترك ذراعها وأخذ يسير أمامها جيئة وذهابًا في خطوات عصبية ثائرة، وهي راكعة تحت أقدامه تبكي، وتضرع إليه في صوت تقطعه دموعها.

ولم يرق قلب الفتى، بل انحنى عليها وأمسك كتفيها بيديه القاسيتين وجعل يلقي في وجهها كلامًا كأنه حمم من نار، وهي لا تزال بين كل كلمة من كلماته تهز رأسها وتقول: «لا.. لا».. فصفعها صفعة ألقت بها على الأرض.. فانكفأت على وجهها تبكي في صمت..

واقتلع الفتى بضع حشائش من الأرض وأخذ يقضمها بأسنانه وكأنه كلب جائع أحاله الجوع مجنونًا.. ثم انحنى مرة ثانية وجذب الفتاة إلى صدره، وأخذ يقبلها وبين قبلاته يهمس... ويشرح ويرجو.. ويغري، إلى أن هزت الفتاة رأسها.. وفي هزتها هذه المرة علامة الموافقة.

وجذبها الفتى من شعرها ، وأهوى على شفتيها في قبلة لا بد أنها اقتلعت قلب الفتاة، لأنه عندما رفع شفتيه عنها، كانت تبتسم.. ابتسامة بلا قلب!!

وبدأ الفتى يهمس من جديد، وكان همسه في هذه المرة سريعًا محددًا وكأنه يعني كل كلمة منه بالتحديد، وعندما انتهى من همسه هزت الفتاة رأسها كأنها فهمت كل شيء، ثم قام الاثنان وانصرفا.

ورشف صديقي الأمريكي كأسه وطلب كأسًا أخرى وقال:

- إنك أحيانًا تسمع قطعة موسيقية فتفهم ما يريد ملحنها أن يعبر عنه.. وقد فهمت هذا الهمس الذي دار أمامي رغم أني كنت أجهل معنى كل كلمة منه، إلّا كلمة «No» التي كانت الفتاة تكررها بين حين وآخر.. فهمت كل شيء من اختلاف طبقات الصوت بين ارتفاع وانخفاض.. كما تفهم أنت إذا ما كان شوبان يريد أن يعبر بموسيقاه عن هدير البحر، أو عن عاصفة، أو عن سوق القرية أو عن قصة حب..

أتدري ماذا فهمت؟..

.. فهمت أن هناك جريمة تعد وسترتكب في تلك الليلة بالذات.. وفهمت أن الفتى يحض الفتاة على أن تشترك معه في ارتكاب الجريمة التي وضع خطتها، وأنها رفضت في مبدأ الأمر، فتوسل إليها ثم قسا عليها، وربما هددها بالهجر.. وطبقة الخادمات في فرنسا يقبلن كل شيء إلا هجر الحبيب، فاضطرت تحت تهديده أن تقبل معاونته في الجريمة..

فهمت كل هذا بكل وضوح، وكأن المجرم كان يقص عليّ مشروع الجريمة بالتفصيل.. وتملكتني الحيرة، كيف أمنع وقوع مثل هذه الجريمة؟

وانتهت حيرتي بأن حملت نفسي مسؤولية الجرم، وإن لم أستطع أن أحول دون وقوعه، فقمت أجري كالمجنون إلى داخل البلدة، وأمسكت بذراع أول رجل بوليس قابلني، وأخذت أشرح له الأمر، وأطالبه بأن يسرع بإبلاغ الخبر إلى رؤسائه ليمنعوا الجريمة قبل وقوعها.. ولكن رجل البوليس كان يستمع إليّ وهو يبتسم.. فدهشت، ثم تذكرت أني كنت أخاطبه بالإنجليزية، وهو لا يعرف طبعًا إلا الفرنسية!!

وتركت عسكري البوليس، وسرت في طريقي نحو الفندق وقد اعتراني يأس قاتل.. كيف أحول دون وقوع الجريمة؟ ولو فرض وكان بين رجال بوليس المدينة من يفهم الإنجليزية، فكيف أثبت له أن هناك جريمة ستقع وليس لديّ من دليل إلا ما فهمته من اختلاف طبقات النغم في حديث الفتى والفتاة، وهو دليل لا تأخذ به دوائر البوليس حتى في أمريكا!

ودخلت حجرتي في الفندق وأنا أكاد أبكي من الغيظ.. ولم أنم ليلتها بل بت أتقلب على فراشي وأعض وسادتي، وأنا أصيح بيني وبين نفسي: هناك جريمة.. هناك جريمة!

وفي التاسعة من صباح اليوم دخل سكرتيري وبيده صحف الصباح، فسألته، هل هناك جريمة؟ فأجاب مندهشًا:

- نعم.. لقد قتلت السيدة التي تقيم في الغرفة رقم 137، وسرقت حليها وقبض على الخادمة، واعترفت أن لها شريكًا لم يقبض عليه بعد.. ولكن كيف عرفت أن هناك جريمة؟..

ولم أجب على سؤال سكرتيري، بل طلبت إليه أن يعد حقائبي لأعود إلى أمريكا في اليوم نفسه..

وقد صممت يومها على ألا أعود إلى فرنسا إلا بعد أن أتعلم اللغة الفرنسية وأجيدها، وقد عدت إليها هذا العام وكل ما أعرفه من لغتها هو عشر كلمات،

ثلاث منها هي: «مرسي» و«بونجور» و«بونسوار»!

صورة العذراء

سألته وهو يبدل ملابسه في حمام النادي الأهلي، عن سر الحلية الصغيرة التي يعلقها في صدره، وقد رسمت عليها صورة العذراء مريم. فروى لي هذه القصة.. قصة قد يرى فيها القارئ العادي صورة وقحة لجسد مبتذل.. ولكنها أعمق من ذلك، إنها قصة الجسد الذي شقيت معه الروح.. فاقرأوها والعنوا الجسد، واطلبوا الرحمة للروح، واصفحوا عن القلم الذي تمادى في صراحته..

* * *

كان قد مضى على وصوله إلى باريس ساعتان، وكان قد انتهى من وضع حقائبه في إحدى حجرات «فندق دي لوفر» وأسرع إلى الحي اللاتيني ليحجز لنفسه حجرة أخرى في «فندق الغرباء» «Hotel des Etrangers»، بشارع «راسين» المتفرع من بوليفار سان ميشيل، عصب الحي اللاتيني وشريانه.

وهكذا أراد أن يعيش في باريس.. أراد أن تكون له شخصيتان:

شخصية عاقلة محترمة يقتضيها عمله ومركزه، وهي الشخصية التي كان يبدو بها في فندق دي لوفر، وفي أروقة مؤتمر السلام الذي كان منعقدًا يومها في باريس.

وشخصية أخرى ماجنة طائشة مستهترة، كان يتقمص فيها ويترك لها العنان، بمجرد أن يطل على الحي اللاتيني، ويضع قدمه في «فندق الغرباء».

وفندق الغرباء فندق عجيب ليس فيه حمام، وليس فيه ماء وليس فيه خدم.. ليس فيه أي شيء سوى زجاجات من النبيذ الرخيص، وقطع من الجبن العفن الذي يباع بالتسعيرة.

وهو فندق مثير غامض، خلف كل باب من أبوابه رجل وامرأة، قد يكونان عاشقين، وقد يكونان جاسوسين خطرين، وقد يكونان من أصحاب الملايين..

وانتهى من الاتفاق مع صاحبة الفندق، ودفع أجر أسبوع مقدمًا - وهو شيء لا يحدث أبدًا في فندق الغرباء - ثم خرج واشترى خوخًا من بائع يدور بفاكهته على عربة يد، ووقف أمام باب الفندق ينهش الخوخ، ويرمي البذرة والقشرة في عرض الطريق.. وكل شيء في الحي اللاتيني يرمى في عرض الطريق.. حتى القلوب والأجساد.

ومرت من أمامه وهي تعدو.. فتاة كل ما استطاع أن يلمحه منها قوامًا خيل إليه أنه قوام تمثال فر من حديقة الكسمبرج.. وما كادت تفوته بخطوات حتى توقفت عن عدوها واستدارت له، ثم أخذت تقترب منه في خطوات بطيئة إلى أن وقفت قبالته.

إنها ليست صغيرة السن كما ظنها بل هي في الرابعة أو الخامسة والعشرين، ولكن في عينيها «شقاوة» ابنة الرابعة عشرة، وفي شفتيها دعوة امرأة في الخامسة والثلاثين، وشعرها الأسود الثائر فوق رأسها لا يهدأ ولا يستقر وكأن كل شعرة منه تبحث عن رجل!!

وكانت ترتدي ثوبًا كالذي يرتديه بنات أوباش باريس.. قميصًا أحمر، وحزامًا أسود عريضًا، «وجيب» قصيرًا يكشف إلى ما فوق الركبتين عن ساقين يجبرانك على أن تطأطئ رأسك!

وصوبت إليه عينيها في جرأة عجيبة، وقالت في صوت كأنه صوت امرأة متعبة استيقظت من النوم بعد ليلة صاخبة:

- إنك غريب عن الحي؟

- لقد وصلت إلى هنا منذ ساعتين.

- وصلت من أين؟

- من لندن..

ولوت شفتيها امتعاضًا وقالت:

- هل أنت إنجليزي؟

- مصري.

- الحمد لله، فإن الإنجليز يتضايقون من لندن فيأتون إلى هنا، ولكنهم يحضرون معهم لندن نفسها فيضايقوننا!!

وسكتت قليلًا وهي تجول بعينيها في أنحاء وجهه وتقيس بهما طوله وعرضه، ثم قالت:

- إنك مثل سيئ لأهل الشرق فقد تعودنا أن نراهم طوالًا عراضًا سمر الوجوه قساة العيون، أقوياء، حتى ليخيل إلينا أننا نستطيع أن نتأرجح بين أصابعهم.. أما

أنت...

وعادت تجول بعينيها في أنحاء وجهه وتقيس بها طوله وعرضه!!

وقال:

- يا آنستي إن أهل الشرق أقوياء الروح، قساة في حقهم، طوال عراض في كل ما يمس كرامتهم، وثقي أن طفلًا من الشرق يستطيع أن يقتلك عندما يعتقد أن هذا من حقه..

وضحكت.. ضحكت كثيرًا، ثم قالت وضحكاتها تقطع كلماتها:

- إنك ولد لذيذ!!

ومدت يدها إلى قرطاس الخوخ الذي كان يحمله بين يديه وأخرجت واحدة، وراحت تأكلها وهي تنظر إليه من بين أهدابها نظرات خيل إليه أنها تنطلق من بين أسنانها..

وكان قد تضايق من وصفها له بأنه «ولد» وتضايق أكثر من أنه «ولد لذيذ». هذا الوصف الذي لم يسمعه من امرأة قط.

فقال في أدب مفتعل:

- يخيل إليّ أني عطلتك عن شيء مهم؟

- أبدًا...

- ولكني رأيتك تجرين.. ولا بد أنك كنت تجرين لشيء مهم؟

- أبدًا.. لقد كنت أجري لأني أردت أن أجري!!

ووضعت ذراعها في ذراعه وسحبته - مع دهشته - إلى داخل الفندق.

وما كادت صاحبة الفندق تراها حتى صاحت بملء قلبها «فالنتين»، وأسرع إليها كل من كان يجلس في البهو الضيق وهم يصيحون «فالنتين» كيف حال فالنتين!! أهلًا بالملاك الشرير! من منا عشيق الليلة يا فالنتين؟!!

إن اسمها فالنتين.. والجميع يقبلونها ويعانقونها ويلقون بضحكاتهم وابتساماتهم بين يديها.

ونظرت إليهم فالنتين كملكة مستبدة تطل من شرفة قصرها على شعب مستعبد، ثم التفتت إلى صاحبة الفندق وقالت في لهجة الآمر الناهي:

- ماذا فعلت لهذا المصري اللذيذ؟

- أعطيته خير غرفة لديّ.. واعتنيت به لدرجة أني غيرت له بياضات السرير.. تصوري!!!

- سأرى بنفسي..

وسحبته من يده وصعدت به درجات السلم، وصاحبة الفندق تصيح وراءها «الغرفة رقم 11».

وأغلقت فالنتين الباب وراءها.. ودار بعينيه في أنحاء الغرفة فلم يرَ شيئًا مما رآه من قبل.. لم يرَ إلا فالنتين.. رآها بجانب النافذة وفوق المائدة وتحت السرير، وأمام المرآة.. لقد طغت شخصيتها على الغرفة كلها، ثم بدأت تتسلل إلى أعصابه وتحتل رأسه وتشعل النار في جسده.. ولكنها وقفت عند باب قلبه ولم تستطع الدخول!

إن له قلبًا متهافتًا، سريع الوقوع، كثير العثرات، ولكنه في هذه المرة قاوم في عناد، وأبى أن يخضع لسحر فالنتين.. فقد كان فيها شيء يخيف، وكان في أنوثتها الناعمة قوة يرهبها، وفي عينيها الساذجتين أنانية لا تقف عند حد... وإن كان قلبه قد قاوم فإن جسده تهاوى.. تحت أقدام فالنتين!!

وقضينا في الغرفة رقم «11» خمسة أيام كانت عيدًا من أعياد الشيطان.. وكانت تصحبه في المساء لتريه أسرار الحي اللاتيني ولم تكن تريه منها إلا أحطها والبؤر المدنسة فيها.. فأخذته إلى حانة «المونتاني» حيث لا يوجد رجال ونساء، بل رجال ورجال ونساء ونساء! وصحبته إلى مقاهي الأوباش حيث يعتبر طعن المرأة بخنجر نوعًا من المداعبة البريئة، وقضت معه ليلة في حانة الغجر «جيبسي» حيث تنساب الأنغام في كؤوس الشمبانيا فتترنح الروح قبل أن يترنح الجسد!!

وكانت إذا سارت في الطريق ودخلت إلى حانة هلل من حولها الجميع، وهللت لهم.

إنها ملكة غير متوجة من ملكات الحي اللاتيني.. وصدقوني بعد كل هذا، إنها طالبة في السوربون، طالبة تدرس الآداب، وكانت كثيرًا ما تروي له أشعار لامارتين وأدمون رستون وتناقشه نظريات جان جاك روسو وماركس

وهكسلي، وتنتقد في لذعات ساخرة كتابات أندريه موروا وقصص ماكس ديفيزيت.

وعندما كان يلومها على إفراطها في اللذة الجسدية، ويطالبها أن تسمو بنفسها لتتذوق لذة الروح، كانت تقول له وهي تتلمس بيدها جسدها الفاتن:

- يا صديقي اللذيذ.. إن روحي هنا.. داخل هذا الجسد.. هذا الإطار الجميل.. ولن تحس بجمال الروح إذا قدمتها لك بلا إطار!!

وأحس بالتعب بعد الأيام الخمسة، تعب من الجسد الشره والروح النهمة والليالي التي لا تهدأ إلا مع الفجر.. وقرر أن يهرب فعاد إلى فندق «دي لوفر» على ألا يعود إلى فندق الغرباء إلا بعد أن تنساه فالنتين وينساها..

وجاء أصدقاؤه بعد أيام يقولون له إن الحي اللاتيني كله يبحث عنه ليقدمه إلى فالنتين.. فإنها قد سلطت وراءه كل «جارسون» وكل بائع جرائد وكل صاحب فندق وأمرتهم إذا ما رآه أحد منهم أن يبلغها خبر العثور عليه!!

ولم يأبه، وعاش أسبوعًا متفرغًا لعمله، يزور المتاحف في أوقات فراغه ويقضي لياليه بين المسارح والملاهي الراقية ودور الأوبرا..

ولكنه عاد يحن إلى الحي اللاتيني، وباريس بلا الحي اللاتيني كراقصة تعظ الناس!

وذهب إلى هناك وهو يدعو الله ألا يرى فالنتين.. ولكنها كانت فوق رأسه بعد وصوله بدقائق، وقذفت في وجهه بكل ما يعلمه وما لا يعلمه من كلمات السباب الفرنسية. ثم بدأت تبكي.. تبكي كنمرة أضناها الجوع.

وانتهى اللقاء بأن صحبته إلى غرفته في فندق الغرباء.. وربما فكر ساعتها في الهرب، ولكنه لم يستطع فقد كان يشعر أمامها بأنه ذبابة وقعت في شراك عنكبوت!..

وما كاد يفتح باب الغرفة رقم «11» حتى وجد اثنين من أصدقائه المصريين راقدين في سريره! فقد كان يبيح لأصدقائه عندما يفلسون أن يأووا إلى حجرته حتى يأتيهم العون المالي من مصر.

والتفت إلى فالنتين وحاول أن يعتذر وهو يرجوها أن تتركه ليقضي ليلته عند صديق، فلم يكن قد أخبرها أن له حجرة أخرى في فندق دي لوفر.

ولكنها أبت أن تتركه وعرضت عليه أن يقضيا الليلة في بيتها، وصِمتت!!

وبيتها حجرة واحدة في عمارة متداعية تطل على ميدان أقيم فيه تمثال «لمارا» أحد أبطال الثورة الفرنسية..

ودخلا الغرفة، فإذا بفتاتين راقدتين فوق السرير.. إحداهما أختها وكان يعرفها من قبل، أما الثانية ففتاة لها وجه أبيض، كوجه ملاك، وكانت نائمة في هدوء كهدوء السماء، وخصلات شعرها الذهبي منتشرة فوق الوسادة كأنغام لحن كنائسي يروي قصة الخلود.. وكان اسمها «ليليت»!!

وما كادت فالنتين ترى الفتاتين في فراشها حتى صرخت، صرخة المرأة عندما تنقلب إلى لبؤة.. وجذبت الغطاء عنهما فقامتا مذعورتين وشتائم فالنتين تصفع وجهيهما..

ونظر إلى ليليت، فإذا ببطنها منتفخ.. إنها حامل.. وإذا بها تسعل فيتناثر رذاذ من الدم حول فمها.. إنها مريضة... ومريضة بالسل.

وكانت فالنتين تصرخ في وجهيهما: إنها تريد فراشها، لها ولعشيقها.. إن هذا هو بيتها الذي تدفع أجره من كدها، ولن تسمح لأحد أن يقلبه ملجأ للمتشردات أو مستشفى حوامل!!

وردت أختها: إننا لم نجد مكانًا آخر لهذه الليلة يا أختاه.. وظننا أنك قد لا تمانعين في أن نبيت هنا.

وقالت فالنتين في ثورتها: بل أمانع. وأمانع هذه الليلة دون بقية الليالي.. إنها ليلة حب.. هيا اخرجا وابحثا عن رجل يؤويكما!!

ولم يكن قد تعود أن يسمع مثل هذه الوقاحة.. ثم إن في الحجرة ملاكًا مريضًا، ولن يسمح بأن يطرد من مأواه إلى برد الليل أمام ناظريه، فتدخل وحاول أن يقنع فالنتين بأن تبقى الفتاتين في فراشهما، ولكنها رفضت وهي تملأ الدنيا صراخًا وسبابًا.

وثارت رجولته فصاح: «إذن فلن أراك بعد اليوم»، واندفع نحو الباب وخرج إلى الشارع، فإذا بها تلحق به وتطبق يديها على رباط عنقه، ثم تركع تحت قدميه وهي تبكي في ثورة مجنونة:

- لن أدعك تتركني.. إنك لي، هذه الليلة على الأقل.. وإلا فسأقتل نفسي وأقتلك!

وخاف أن تجن، فربت على وجهها وهو يحاول أن يخلص عنقه من بين يديها، وقال لها إنه سيصحبها معه إلى فندق آخر، فندق دي لوفر، على شرط أن تدع الفتاتين تنامان في فراشها.

ورضيت.. وأطلت ابتسامة الفوز من بين دموعها، ثم عادت وعاد معها إلى غرفتها ليطلبا إلى الفتاتين أن تظلا فيها.. وكانتا ترتديان ملابسهما الرثة استعدادًا للخروج.. فصاحت بهما فالنتين:

- إني سأترك لكما الغرفة في هذه الليلة فقط..

وهزت الفتاتان رأسيهما وقالتا:

- بل سنتركها نحن لك.

وهمتا بالخروج.. وتقدم هو إلى ليليت وقال يستعطفها:

- إن الليل بارد يا آنسة، وأنت أرق وأضعف من برد الليل فابقي هنا إلى أن تشرق الشمس.

وقالت ليليت في صوت ضعيف:

- يا سيدي.. إني فتاة خاسرة.. خسرت كل شيء، إلا بقية ضئيلة من كرامتي أحب أن أحتفظ بها الليلة!

قال:

- بحق ابنك الذي يعيش في أحشائك.. لا تخرجي من هنا!

قالت:

- إن ابني لن يرى النور سواء بقيت أم خرجت!

قال:

- إنك تتعبينني فإني لا أجيد الفرنسية، وأخشى ألا أستطيع أن أفهمك..

قالت:

- تكلم بأي لغة، حتى ولو كانت العربية، أو لا تتكلم أبدًا.. فإني أستطيع الآن أن أفهم وأرى كل شيء..

قال:

- ألا تفهمين أنك يجب أن تبقي، ألا ترين خطر الليل عليك؟!

قالت:

- أفهم أنني يجب أن أخرج من هنا.. شكرًا.. إنك رجل طيب.. طيب جدًّا، خذ..

وأعطته علبة صغيرة صدئة رُسمت عليها صورة العذراء مريم، ثم خرجت ومن ورائها الفتاة الأخرى.. ودون أن يعي التفت إلى فالنتين وهوى بيده على وجهها فوقعت على الأرض وأخذ يركلها بقدميه، ثم خرج يعدو..

وظل يعدو حتى التقى بسيارة من سيارات الأجرة حملته إلى فندق دي لوفر، وصراخ فالنتين ينتزع من أذنيه تهافت صوت ليليت!!

* * *

وعاد في الليلة التالية يبحث عن ليليت، فقالوا له بكل بساطة «ماتت»!..

لقد قضت ليلتها على أحد أرصفة نهر السين، وهام بها هواء الليل عشقًا، فانتزع روحها وصعد بها إلى السماء!

وسار في أحياء الحي اللاتيني وبين أصابعه الحلية التي أهدتها له «القتيلة» وعليها صورة العذراء..

إنهم لا يزالون - في الحي اللاتيني - يغنون ويرقصون، ولا تزال الفتيات يمرحن ويصرخن صرخات الجسد الذي لا يهدأ..

إن الحي اللاتيني لا يبكي الأموات ولكنه يغني لهم!

وجوه لم أعرفها

في مجتمعات إنجلترا وفرنسا قابلت وجوهًا غريبة.. رجالًا في ضحكاتهم دموع، ونساء وراء دموعهن ضحكات.. وجوهًا تظهر حينما تعتقد أنها اختفت، وتختفي حينما تعتقد أنها بجانبك، وكنت كلما اصطدمت بواحد من هذه الوجوه قفز إلى لساني مائة سؤال وسؤال... من هو؟ ماذا يعمل؟ كيف يكتسب؟ ما هي جنسيته؟.. وكانت كل هذه الأسئلة تختفي بمجرد أن يتحرك لساني، وأفيق، فأجد نفسي قد جاوبت على مائة سؤال.. كنت أندم لإجابتي على 99 سؤالًا منها!...

فندق الغرباء

في فندق «الغرباء» بالحي اللاتيني.. كان يسكن رجل وزوجته.

الرجل في الثلاثين من عمره رشيق القوام تطل عيناه الزرقاوان من تحت جبين عريض على وجه جميل هادئ ممتلئ صحة وفتوة، يعلوه شارب ضخم مشعث يضفي على صاحبه نوعًا من الهيبة والوقار أو هو نوع من الغموض!

واعتاد الرجل أن يرتدي حلة سوداء غامقة وياقة منشاة عالية وقبعة من الجوخ ويمسك بيده عصا غليظة.. وكل هذه أشياء من النادر أن تراها في الحي اللاتيني، حتى أن سكان الحي اعتادوا كلما رأوا رجلًا يدخل مقهى وعلى رأسه قبعة أن يصيحوا في وجهه «البرنيطة.. البرنيطة» ويظلون يكررونها حتى يخلع الرجل قبعته!

ثم إن فندق «الغرباء» فندق فقير، لم يتعود أصحابه أن يستقبلوا زبائن من هذا الصنف الأرستقراطي، فكل نزلائه عادة من الطلبة والطالبات وأحسنهم حالًا يكتفي في الصيف بارتداء قميص وبنطلون وحذاء بلا جوارب!!

وأما زوجة الرجل فهي شابة قصيرة القامة ليس لها شيء من وجاهة زوجها، تبدو دائمًا مرتدية ثوبًا رخيصًا بسيطًا، وساقاها دائمًا عاريتان ينتشر فيهما شعر كثيف حتى أنك لو أخفيت وجهها لظننت أنهما ساقا رجل!

وهي ليست جميلة الوجه، ولكن يروعك منها ذكاء حاد ينبعث من عينيها وابتسامة طيبة فوق شفتيها..

وكانت دائمًا تقرأ.. في الفندق.. وفي الطريق.. وأثناء تناولها الطعام.

وقد أقمت في هذا الفندق ثلاثة أيام، ثم حجزت فيه غرفة كنت أتردد عليها أثناء إقامتي في باريس.. ولفت نظري شخصية هذا الرجل وزوجته، فبحثت في سجل النزلاء فعلمت أن اسمه «هـ. و»، وأنه نمساوي ولم أستطع أن أعلم عنه أكثر من ذلك سواء من أصحاب الفندق أو من الخدم أو من بقية النزلاء..

وقد اصطدمت بالرجل أكثر من مرة على درجات الفندق وفي قهوة «دي بونت» وفي حديقة الكسمبرج ولم يحاول يومًا أن يعيرني التفاتة، ولكنه فاجأني ذات مرة بأن هز رأسه محييًا، وفي مرة ثانية مد لي يده مصافحًا، وفي الثالثة قبل دعوتي لتناول «الابراتيف»..

وعلمت - أو استنتجت - فيما بعد، أن سر اهتمامه بي يرجع إلى أنه علم من سجلات الفندق أني مصري وأني صحفي..

وتحدثنا طويلًا..

إنه أستاذ في جامعة فيينا، وقد جاء باريس - كما قال لي - ليحضر الدراسات الصيفية في جامعة السوربون، وهو يقوم في بلده النمسا بدعوة جديدة يسميها «نهضة الجيل الجديد» وينشر مبادئها بين طلبة المدارس والجامعات، وحاول أن يقنعني بأن دعوته ليست حركة سياسية، إنما هي حركة اجتماعية أخلاقية ثقافية.

وقد أهداني كتابًا صغيرًا باللغة الألمانية يضم مبادئ حركته، وعندما ترجمته وجدت أنها كلها مبادئ تدعو الشباب إلى الابتعاد عن السياسة، وإلى التمسك بقواعد الدين والأخلاق وحصر جهودهم في تلقي العلم لخدمة النمسا والنهوض بها.. وأقول الحق إني لم أهضم هذه المبادئ ولم أقتنع بها!

وقد قال لي إنه يسعى ليجعل من حركته حركة عالمية تضم شباب العالم في اتحاد دائم.. وسألني عن الجامعة المصرية والتيارات السياسية فيها، وموقف الحكومة منها، والشخصيات ذات التأثير على طلبتها، وهل يمكن أن تنتشر مبادئه بينهم؟!

وعندما تحدثنا عن المبادئ السياسية وعن الدول العظمى، خيل إليّ أنه شيوعي، ولكن كان هناك دائمًا شيء ينقصه ليكون شيوعيًا مخلصًا. لا أدري ما هو! وآخر مرة تحدثنا فيها طلب مني أن أسعى لدى المفوضية المصرية في باريس لأحصل له على تأشيرة للدخول إلى مصر.. فوعدته.. ولم أف بوعدي..

وفجأة اختفى الرجل وزوجته من الفندق ومن الحي اللاتيني كله، وعندما سألت عنه صاحبة الفندق قالت لي إنها لا تعلم أين ذهب، ولكنه لا يزال محتفظًا بغرفته وقد دفع أجر أسبوع مقدمًا قبل أن يذهب..

وبعد أسبوع عاد الرجل وزوجته.. وقال لي إنه كان في لندن، ولكنه لم يشأ أن يقول لي لماذا ذهب إليها، واكتفى بأن حدثني عن المسارح الإنجليزية ودور المتاحف هناك!

وعدنا نلتقي في فترات متقطعة متقاربة، وكان حديثه دائمًا خلابًا، وكنت دائمًا أقتنع بما يقول، فإذا فارقته وجدت أنه لم يقل شيئًا، وفي ذات مرة فاجأني بقوله إنه زار مصر، وإنه أقام بها خمس سنوات ولم يغادرها إلا في مارس عام 1940، وقال إنه كان يعمل في فرع إحدى الشركات الألمانية، وسمى لي بعض

الشخصيات المصرية بأسمائها كما أظهر معرفته ببعض أساتذة الجامعة، وبعض زعماء الشباب في ذلك الوقت!

ولم يستمر حديثنا عن مصر طويلًا فقد حوله بسرعة إلى موضوع آخر حتى لا يعود إلى الحديث عن أصدقائه المصريين.. وربما اعتبر تصريحه لي بسبق زيارته لمصر فلتة لسان.

لماذا لم يحدثني عند أول مقابلة لي عن زيارته لمصر؟

وإذا كان نمساويًّا، فكيف سُمح له بالبقاء في مصر حتى عام 1940 أي بعد إعلان الحرب، والنمسا كانت معتبرة من دول الأعداء بل كانت قطعة من ألمانيا؟! وكيف سُمح له بمغادرة مصر في ذلك التاريخ ولم يقبض عليه ولم يعتقل؟!

وإذا كان شيوعيّا كما حاول أن يقنعني فكيف سمح له بزيارة انجلترا في الفترة التي غاب فيها عن فندق الغرباء، وقد رأيت بعيني رأسي تأشيرة السفارة الإنجليزية في باريس فوق جواز سفره؟!

ثم ما هي حركة «نهضة الجيل الجديد» التي يقوم بها، ولماذا يريد أن ينشرها في مصر؟.. ولماذا وسطني لدى المفوضية المصرية في حين أنه يعلم أن كل من يحمل «فيزا» لزيارة انجلترا يستطيع أن يحصل على فيزا لزيارة مصر؟!

إنه جاسوس ولا شك.. ولكن هل هو جاسوس إنجليزي؟ أم رومي؟ أم من أتباع هتلر الذين ما زالوا منبثين في كل مكان من أوربا؟!

ميناء مرسيليا

كنا وقوفًا في صف طويل في انتظار الكشف على جوازات السفر لنصعد إلى الباخرة أندريه ليبون التي ستحملنا إلى مصر، وفجأة وقفت سيارة «دمار» سوداء فخمة وقفز ضابط إنجليزي وفتح بابها لسيدة في الأربعين من عمرها تكفي نظرة واحدة إلى الخاتم الذي يسطع في إصبعها لتعلم أنها من صاحبات الملايين.

ولم تقف السيدة معنا في الصف بل اتجهت توًّا إلى سلم الباخرة، وصعدت يتبعها الضابط الإنجليزي يحمل جواز سفرها وثلاثة من الحمالين يحملون حقائبها وموظفو الجمرك الفرنسي يرفعون يدهم بالتحية والإجلال.

وسرت همهمة بيننا.. نحن الواقفين منذ ساعتين في الصف.. ولكن أحدًا منا لم يتعرف على شخصية هذه السيدة.

وقدموني إليها في قاعة الطعام بعدما تحركت الباخرة.. قدمني إليها صديق مصري من أولاد الذوات وسليل عائلة كبيرة اشتهرت بالغنى.

إنها السيدة «ز» يونانية تقيم في مصر، وتمتلك عزبة شاسعة عند دمنهور وأخرى في الصعيد، وتمتلك شوارع بأكملها في مدينة الإسكندرية، وقد أطلق على أحد هذه الشوارع اسم عائلتها، ولها أملاك في إنجلترا وعلى شواطئ الريفيرا وفي اليونان.. وهي جميلة رائعة الجمال يصهرك دفء عينيها ويزعج أعصابك منها سخونة سن الأربعين!

وربما كان أجمل ما فيها حديثها، فهي تستطيع أن تحدثك أيامًا دون أن تمل سماعها، وتستطيع أن تنتقل بك من جنوب إفريقيا حتى القطب الشمالي في قصص وحوادث شهدتها بعينيها، وقامت في بعضها بدور البطولة.. وكانت في أحاديثها تأتي على ذكر رجال عظام بلا كلفة وبلا تصنع.. تشرشل.. اتلي.. كيلرن.. جنرال ستون.. صدقي باشا.. الملك جورج ملك اليونان.. وشخصيات أخرى تنحني لها الرقاب وكلهم أصدقاؤها وكلهم حضروا حفلاتها التي كانت تقيمها في قصورها المبعثرة في أنحاء أوربا ومصر.

وهي في حديثها تحاول أن ترضي جميع مستمعيها، وتحاول أن تفوز بإعجابهم وصداقتهم، وقد حدث مرة أن قامت بيني وبين أحد زعماء اليهود المسافرين على نفس الباخرة - وهو رئيس جمعية الهستدروت في فلسطين - مناقشة حادة حول القضية الفلسطينية بلغ من حدتها أن أزعجت جميع الركاب، وخيل إليّ أثناء المناقشة أن «ز» تدافع عن آرائي، ويظهر أن اليهودي الفلسطيني

خيل إليه نفس الشيء، فقد وجدتهما بعد ساعة من انتهاء المناقشة منفردين في ركن منزو يجمع بينهما حديث هادئ!

وهي متعصبة في آرائها السياسية للإنجليز، وتؤمن بأن الإمبراطورية العجوز لا تزال شابة ولم تخط بعد الخطوة الأولى نحو الفناء.. قالت لي مرة عندما أحست تعصبي ضد انجلترا: «يا صديقي.. كن عاقلًا.. إن الإنسان لابد له من سند قوي في الحياة، ولا أظنك تريد روسيا سندًا لك، وصدقني إن الإنجليز أغبياء تستطيع أن تضحك عليهم، ولكنك لا تستطيع أن تستغني عنهم»!

وسهرنا ليلة على سطح الباخرة حتى الساعة الثالثة صباحًا.. وحيدين ليس معنا إلا صوت أغنية عبرية حزينة تغنيها امرأة من المهاجرين اليهود من ركاب الدرجة الثالثة..

وفي هذه الليلة شربت مدام «ز» كثيرًا وحدثتني كثيرًا.. حدثتني عن خدماتها للإمبراطورية الإنجليزية، وعن خدماتها السياسية الخطيرة التي أدتها لملك اليونان وعن بعض الأمراء المصريين المقيمين الآن في انجلترا، وعن حوادث كنت أجهلها عن لورد وليدي كيلرن.

وعندما سألتها هل يعود الملك جورج إلى اليونان؟ قالت في لهجة طبيعية كأنها تتحدث عن شيء قررت أن يحدث وسيحدث:

- إنه سيعود يوم 20 سبتمبر.

قالت ذلك وكنا في 14 أغسطس عام 1945 أي قبل إجراء الاستفتاء في اليونان بشهر تقريبًا.. وقد عاد الملك جورج إلى اليونان يوم 20 سبتمبر.

وإذا كان أحد قد أقنعني بأن انتخابات اليونان زورت فهي مدام «ز»!!

لندن

دعاني الكولونيل «ر» من الضباط البريطانيين المتقاعدين، وأحد أعضاء البعثة العسكرية البريطانية في مصر سابقًا إلى تناول الغداء في نادي الفرسان Cavalary Club وهو أفخم نوادي لندن وأعلاها مرتبة ورئيسه الفخري ملك.. هو ملك الإنجليز.

وبعد الغداء قدمني صديقي الكولونيل إلى الكابتن «س».. شاب في ثياب مدنية، قصير القامة ممتلئ الجسم يعلو رأسه شعر طويل أصفر مشعث كحزمة من قش القمح، حتى تخال أنه لم يعرف طريق الحلاق منذ أن ولد!

وهو قليل الكلام أصم الوجه لا تعبر عيناه عن شيء، وهو يبتسم ولكن ابتسامته لا تصل إلى قلبك، وقد يغضب ولكن غضبه لا يثير أعصابك.. إنه قطعة من الثلج يتساقط ذوبها في عروقك فتحس بقشعريرة!

وقد طاف معي الكابتن «س» حجرات النادي شارحًا لي الصور الزيتية التي تغطي الجدران والتماثيل التي تطل من وراء كل باب.. صور وتماثيل لجنود الإمبراطورية وكل منهم له قصة أريقت بين سطورها الدماء، ونودي بصاحبها بطلًا من فوق أجداث القتلى، إنهم جميعًا حاربوا وخاضوا المعارك لا من أجل الإمبراطورية - أستغفر الله - بل من أجل سلام وحرية العالم.. أو هكذا قال صديقي!!

ووقف بي صاحبي طويلًا أمام صورة زيتية كبيرة معلقة في صدر بهو الحفلات بالنادي.. إنها صورة رجل يسير متخاذلًا منهوكًا بين عاصفة ثلجية.. وقد رأيت من هذه الصورة ملايين النسخ في كل شارع وفي كل بيت إنجليزي..

ولم يتكلم صاحبي كعادته شارحًا قصة الصورة، بل ظل دقائق طويلة معلقًا نظره في صمت قاس وهو يضغط على شفتيه ويقبض أحد كفيه بالآخر في قوة وعصبية كأنه يغالب دموعًا قد تنفجر من عينيه أو يقاوم أعصابه حتى لا يخر مغشيًا عليه.. ثم تمتم في صوت خافت وهو لا يزال شاخصًا بناظريه إلى الصورة:

«هذا هو بطلنا العظيم»..

والبطل هذا هو «الكابتن أرتس» من ضباط سلاح الفرسان، وقد كان أحد أعضاء بعثة سكوت الاستكشافية إلى القطب الشمالي، ثم مرض أثناء

الطريق وخشي أن يعوق مرضه رفاقه عن إتمام الرحلة، فتسلل خلال الليل من معسكر البعثة واختفى بين الثلوج إلى الأبد!

وقال صديقي والكلمات تتقطع بين أسنانه: «كان هناك أمل في شفائه.. وكان يعلم أن رفاقه لن يخطوا خطوة أخرى إلى الأمام إلا بعد أن تعود إليه صحته، كان يعلم أنهم ربما عادوا أدراجهم من حيث بدأوا ليلحقوه بأقرب مستشفى.. ولو حدث ذلك لما تمت الرحلة.. وقد فضل أن يموت على أن يعوق زملاءه عن إتمام الرحلة».

وسكت قليلًا ثم قال:

«إن الكثيرين خدموا الإمبراطورية بموتهم أكثر مما خدموها بحياتهم».

* * *

ودعاني الكابتن «س» إلى العشاء في نادي «الباني Albany» وتحدثنا ليلة بأكملها.. فقد زار القاهرة وزار العراق وزار شرق الأردن والهند وإيران وكانت كل زيارة تستغرق عامًا وبعضها يستغرق ثلاثة أعوام.. أما ما هي دوافع هذه الزيارات، وماذا قام به في كل من هذه البلاد؟ فلم يقل لي شيئًا ولم يكن من حقي أن أسأله!!

وهو مهتم بالناحية الدينية في مصر، ويكثر من أسئلته عن مشايخ الطرق وعن البكري وهل يتمتع بقوة شعبية كبيرة، وما هي الروابط بين المسلمين والأقباط.. وكم نسبة المتعلمين في كل من الطائفتين، ونسبة موظفي الحكومة من كل طائفة؟!!

وعندما أحس أنه تمادى في أسئلته بدأ هو يتحدث، ولم يكن حديثه يهمني في شيء. وأعتقد أنه كان يعلم هذا، فلم يكن من المعقول أن يهتم صحفي مثلي بحديث عن الخيول والجمال العربية، وما هي صفاتها وطرق تربيتها!

ومضت أيام..

وكنت أزور وزارة الخارجية البريطانية فلمحته يخرج من أحد الأبواب، وربما كان قد لمحني كما لمحته، ولكنه تعامى فتعاميت!!

ومضت أيام أخرى..

وكنت مع صديق إنجليزي في حانة تدعى «الأجراس الثمانية» وهي حانة تؤمها طبقة من الشعبِ الإنجليزي مصابة «بلحسة» عجيبة، فتجد فيها سائق

التاكسي بجانب أحد اللوردات، وابن الذوات بجانب ابن الحداد، وابنة مليونير بجانب امرأة عاهرة، وكل شيء مباح بين أرجائها حتى ما لا يحله الشيطان!

وفجأة اصطدمت به خارجًا وفي ذراعه امرأة، امرأة شابة تطل الفتنة من عينيها - ولم يكن مخمورًا ولا ملحوسًا، كبقية زبائن الحانة - واكتفى بأن رفع قبعته محييًا عندما تقابلت نظراتنا، واختفى في ظلام لندن.

وسألني صديقي الذي صحبني إلى حانة الأجراس الثمانية: «أتعرف هذا الرجل»؟

وأجبت بالإيجاب فقال:

- هل تعرف أنه أنحس إنسان في العالم.. لقد حاول منذ أسابيع أن ينتحر، فأغلق على نفسه حجرة نومه وفتح صمام الغاز ثم نام في انتظار الموت.. ولكنه استيقظ في الصباح فلم يجد نفسه في العالم الآخر!

قلت: كيف؟

قال: اتضح أن عمال شركة الغاز أضربوا عن العمل ليلتها، فلم يصل الغاز إلى المنازل.. هل سمعت عن نحس أكثر من هذا؟!

قلت: لا.

ومرت أيام..

وغادرت لندن إلى باريس فإذا بي ألتقي به في فندق جورج الخامس الذي كان يقيم فيه أعضاء الوفد البريطاني لدى مؤتمر السلام الذي عقد في أغسطس عام 45.. ودعوته إلى كأس من الابراتيف وسألته:

- هل ستقيم في باريس طويلًا؟

- سأغادرها غدًا..

قلت: إلى أين؟

قال وهو يبتسم تلك الابتسامة التي لا يمكن أن تصل إلى قلبك:

- إلى الشرق!!

من هو؟ وماذا كان يعمل في وزارة الخارجية؟ وهل حاول الانتحار ليخدم الإمبراطورية بموته أكثر مما يستطيع أن يخدمها بحياته، ثم ما هي مهمته في باريس؟ وإلى أي بلد من بلاد الشرق سيرحل؟

لست أدري!!

باريس

«ك» مخلوق لبناني الأصل متجنس بالجنسية الفرنسية، عندما تقابله ينحني بين يديك حتى تكاد جبهته تلمس الأرض سواء كنت عظيمًا أم حقيرًا، وسواء جئت تطلب إليه حاجة أو تسد له حاجة.. وهو يتحدث في صوت خافت لا يكاد يصل إلى أذنيك وتخرج كلماته من بين ابتسامة رياء وخسة ونذالة.

هذا المخلوق الوضيع الخسيس المرائي، مليونير قابلته في باريس لعمل يتعلق ببعض الأصدقاء المصريين فطلب مني أن أزوره في مكتبه، وعندما زرته استقبلتني سكرتيرته..

إنها.. «أنثى» - وهو التعبير الوحيد الذي ينطبق على حضرة السكرتيرة - تفوح منها رائحة الدنس وتهب منها أنفاس تسلبك أعصابك وتدوخك، لتفيق بعدها وأنت تلطم الخدين..

واعتذرت لي السكرتيرة لعدم وجود «ك»، وطلبت إليّ الانتظار قليلًا، ثم جلست لا إلى مكتبها بل فوق مكتبها، وساقاها العاريتان - إلى ما فوق الساقين - تتدليان أمام عينيّ وتهتفان بي أن تقدم ولا تخف!

واختارت حضرتها أقصر حديث يوصلك إلى طلب موعد لتناول العشاء!

ولكن حديثها لم يؤد إلى ما سعت إليه، وربما اعتبرتني طفلًا أو «نيلة» لأني لم أخضع لتأثيرها.. أما أنا فاعتبرتها شركًا حاولت الإفلات منه.. شركًا وقع فيه الكثيرون ومن بينهم مصريون عظماء، وسلوهم عن الصفقات الخاسرة التي عقدوها مع المليونير «ك» على يد سكرتيرته، سلوهم عن الذهب الذي باعوه بواسطة هذه الأنثى بسعر يقل أضعافًا عن سعر السوق الرسمية والسوق السوداء، سلوهم عن الليالي التي قضوها في المنزل الريفي الهادئ الذي يملكه صاحبنا المليونير في بلدة «فونتنبلو»، والخراب الذي لحق بهم عندما استيقظت هذه الليالي على نور الصباح.

إنها سلسلة فضائح ترفع بين سطورها أسماء رجال رسميين وغير رسميين قد يدونها قلمي يومًا، عندما يصبح اغتيالي لا يهم أحدًا!!

وعندما يئست السكرتيرة أدخلتني إلى المليونير، ولم يستمر حديثنا طويلًا، فقد كرهت ابتسامته وكرهت مساومته، وصحت: «لا» بكل ما فيّ من قوة إرادة، وخبطت الباب ورائي وهربت هروب الملاك من وكر الشيطان.

وحتى عام 1940 كان ذلك الرجل فقيرًا لا يملك مليمًا، يشتغل سمسارًا في عقد الصفقات الصغيرة، وكان يقيم هو وعائلته في حجرتين فوق سطح أحد المنازل بشارع «سان جرمان»، وقد أصبح خلال ست سنوات مليونيرًا يستطيع أن يرفع سماعة تليفونه ليأمر أي سفارة أو أية مفوضية بمساعدة فلان وعلان..

وهو يطير في كل أسبوع مرة إلى سويسرا يعود بعدها إلى باريس وفي يده حقيبة لا يجرؤ أحد من رجال الجمرك الفرنسي ولا السويسري على فتحها أو سؤاله عن محتوياتها.. وقد حدث عندما كنت في باريس أن حاول أحد رجال جمرك مطار بورجيه أن يفتح هذه الحقيبة، فاكتفى المليونير - وسمعته بأذني - يلفظ اسم شخصية عالمية كبيرة نسب إليها ملكية هذه الحقيبة.. وانحنت ساعتها الرقاب.

ورغم كل هذه الملايين التي يملكها، فإن أحدًا لا يعرف أين ملايينه، وأن أحدًا لا يعلم كيف جمعها.. وهو ما زال يقيم في الحجرتين المتواضعتين بشارع «سان جرمان»، وقد تنتهي إقامته في مسكنه القديم بحكم يصدر عليه بالإعدام تطبيقًا لقانونين، أحدهما قانون التجسس، والآخر قانون الاتجار في السوق السوداء.

وجوه عرفتها

.. وهذه وجوه أخرى عرفتها.. وربما عرفتها أكثر مما تعرف نفسها، لأني عشت معها أكثر مما عاشت معي، ولمحت فيها أكثر مما أرادتني أن ألمح.

وجميع أصحاب هذه الوجوه أحياء، وإن لم يعرف القارئ أسماءهم من بين السطور، فهم يعرفون أنفسهم، رغم أني حاولت أن أتستر عليهم صونًا لذكرياتهم.. ولعل هذا المجهود الذي بذلته يشفع لي عندهم فلا يغضبون ولا يثورون، كما عودوني الغضب والثورة كلما مسهم قلمي من بعيد أو قريب!!

راقصة وقلم

كان لا يزال طالبًا في الجامعة عندما عرفها.. وكان قد مضى عليها أربعة أيام منذ أن احترفت الرقص في إحدى صالات شارع عماد الدين..

أما كيف عرفها وما هو تاريخ حياتها قبل أن تحترف الرقص فهذه قصة طويلة تحتاج إلى كتاب.

وعندما رأته لأول مرة لم تر فيه غذاء لقلبها ولا ما يحقق آمالها وإنما رأت فيه خطوة إلى الأمام!!

وقد كان لا بد لها أن تختار عشيقًا، ولو خيرت لاختارت عشيقها من بين أفراد التخت أو من بين خدم الصالة أو من بين هؤلاء الذين احترفوا العشق وأجادوه، وفهموا كيف يرضون الأجساد الرخيصة والعقول الضيقة التي تعيش في «الصالات» وتلمع من حولها الأنوار، وتظل هي منطفئة إلى الأبد.

ولكن طموحها لم يترك لها أن تختار عشيقها، فقد كانت تريد أن تترفع عن زميلاتها وأن تلمع حتى يطغى نورها على من حولها.. وقد رأت فيه رغم صغر سنه ورغم فقره خطوة قصيرة نحو المجد الذي تحلم به، فقد كان صاحب قلم.. قلم هزيل ضعيف.. ولكنه يستطيع أن يخط لها سطرًا تنشره مجلة من المجلات السخيفة التي تباع على موائد المخمورين ومحترفي العشق.

أما هو.. فقد اختارها لأنه كان يستعد للامتحان، وكان يريد فتاة «غلبانة» تقبل أن تعاشره دون أن تتعبه.. فتاة ترضى بفقره دون أن تلومه عليه، وترضخ لأوامره دون أن تناقشها.

وكان قد تعود أن يسعى دائمًا وراء شهيرات الراقصات وزعيمات الفن المدنس، وكان سعيه هذا يكلفه مجهودًا ويستأثر بفكره، أما الآن فدراسته تحتاج إلى كل مجهوده وكل فكره، فرضي بهذه الراقصة الجديدة لتملأ عليه وحدة أيامه. الوحدة التي كان ولا يزال حتى اليوم يخافها لأنه يخاف نفسه..

ولم تنقض الليلة الأولى حتى تفاهما.. تفاهما على أن كليهما لا يحب الآخر وإنما كلاهما محتاج للآخر..

وكان قد عوضها عن الحب بشيء جديد عليها وعاطفة لم تحسها من مخلوق آخر قبل اليوم.. وهي عاطفة الاحترام.. فقد كان يحترمها، ويحترم نوع تفكيرها، ويحترم جسدها ويحترم مناقشتها.. وهي لا تذكر يومًا أنها سمعته يوجه إليها ألفاظًا نابية مما تعودت أن تسمع مثلها كلما توجه إليها صديق أو

صديقة بتحية الصباح أو المساء، ولا تذكر أنه أهان يومًا جسدها الذي أهانه كل من عبر في طريقها، إنما كان يعتبره - أي جسدها - قطعة فنية ثمينة غالية، يقربها بحساب ويقلبها بين يديه بحساب.

وهي لا تدعي أن هذا الاحترام قد أشبعها، فقد كانت دائمًا تحن إلى الرجل الذي يسخر من تفكيرها ويصفعها ويغتصب دموعها من عينيها.. ولكن هذا الحنين كان يخمد طموحها، وكان الاحترام الذي عاملها به يتمشى مع هذا الطموح ومع تشبثها بالترفع عن زميلاتها واعتقادها بأنها خلقت من طينة أنظف من الطينة التي تكسو شارع عماد الدين!

بل إن هذا الاحترام جعلها تحترم نفسها وتصون كبرياءها.. وقد استطاع أن يقنعها بأن الرقص مهنة شريفة، وفن معبر، وأن جسدها العاري هو قيثارة عازف، تبكي أوتارها حينًا وتضحك حينًا، وتحب وتكره وتثور وتهدأ، وأن هذا الجسد عندما يتلوى على خشبة المسرح إنما يبلغ رسالة من رسالات الفن. الرسالات التي حملها يومًا روفائيللي الرسام، وبيتهوفن الموسيقي، وكاروزو المغني، وبافلوفا الراقصة، والتي يحملها اليوم محمود بك حسن ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم وتوفيق الحكيم وعلي محمود طه وهي.. وهي الراقصة التي تعرض جسدها في وكر الشيطان لقاء أربعة جنيهات في الشهر!

وكانت تعود إليه كل مساء بعد انتهاء عملها حاملة بين يديها طعام عشائها الذي جمعته من بقايا «المزات». ثم تجلس تحت أقدامه وهو يستذكر دروسه صامتة لا تتكلم.. وقد ينقضي على صمتها ساعة وساعتان وثلاث، دون أن يلتفت إليها أو يتوجه إليها بكلمة، وكانت تتحمل هذا الصمت صابرة فقد عودها أن تحترمه كما يحترمها، وأقنعها أنها مسؤولة عن نجاحه وعن مستقبله وعن تحقيق آماله..

وكانت له آمال كما كانت لها آمال، وكان طموحًا كطموحها، يريد أن يفرض قلمه على الناس، ويريد أن يضع اسمه على صدر كل صحيفة، وأن يضع زعماء بلده بين أصابعه يحركهم بقلمه ويثور عليهم ويصلح من شأنهم، ويريد أن ينفث عن صدره هذه النار الوطنية التي تحرق أعصابه والتي حاول كثيرًا أن يسطرها في مقالات تنشرها الصحف فكان نصيبها دائمًا سلة المهملات، لا لأنها مقالات تافهة بل لأنها كانت تحمل اسمًا تافهًا.. اسمه هو..

وكان عندما ينتهي من استذكار دروسه يحدثها عن آماله هذه وتحدثه عن آمالها، فإذا كان الصباح قامت قبل أن يقوم تكنس له بيته وتغسل له جواربه، ثم تدس يدها في جيبه فتأخذ منه عشرة قروش، تشتري بقرشين منها طعامًا لإفطاره تتركه له على مائدته، وتستأجر بالباقي عربة حنطور تحملها إلى منزلها..

وكانا أحيانًا يقضيان النهار معًا، فيسمعها أسطوانات ألحان تشايكوفسكي وشوبان وبتهوفن، ويحاول أن يجعلها تتذوق هذه الألحان، بل كان يأمرها أن ترقص على أنغامها، فكانت تتلوى أمامه بلا ضابط لحركاتها إلا ما يهز أعصابها وروحها من موسيقى شوبان أو بيتهوفن، وكان يصيح فيها وهي ترقص: «ابكي» فتتهافت بجسدها في بطء معذب، وكأنه دمعة تسيل على خد باك.. ثم يصيح فيها: «اضحكي» فينتفض جسدها كأنه قهقهة توفيق دياب بك لنكتة من نكات كامل الشناوي.. ثم يصيح فيها: «توسلي» فتسقط بجسدها تحت أقدامه وتتمايل به في استجداء مثير حتى يشعر هو نفسه بالشفقة والحنين!

وكان فوق ذلك يقرأ لها كتبه التي يقرأها، ولو جلست إليها اليوم لروت لك شعر شوقي وقصص أوسكار وايلد ولحدثتك عن النظرية الإيطالية في قانون العقوبات وآراء «جيد» في النقد المتداول.. تحدثك عن كل ذلك، وقد لا تكون قد فهمت منه شيئًا، ولكنها حفظته عنه..

ومر عليهما شهران نجح خلالهما في امتحانه..

وجلسا يومًا يتحدثان في هدوء وتفاهم، فقال لها إنه يرى أن الوقت قد حان لينفصلا، وإنه لا يكفي أن يجلسا إلى بعض ويحلما بالمجد، بل يجب أن يخرج كل منهما إلى طريقه باحثًا عن مجده، فهي لن تجد المجد بين ذراعيه مهما طال عليها الأمد، وهو لن يجد مجده بين أحضانها مهما سعى إليه.. لقد سلّحها بكل ما عنده، سلحها بالثقة والاحترام وتقدير فنها، وعليها اليوم أن تخرج لتقتحم بسلاحها الدنيا، وإذا كانت قد اعتبرته خطوة إلى الأمام، فعليها اليوم أن تخطو خطوات أخرى، وأن تختار عشاقها بحيث يرفعها كل واحد منهم على سلمه حتى تصل إلى القمة..

وأطرقت برأسها قليلًا تفكر.. إنها لا تستطيع أن تعيش على ألحان شوبان وأشعار شوقي، وأن ترقص له وحده، إنها تريد الشبع وتريد النور وتريد أن تسمع هتاف الجماهير وترى صورتها على صفحات الصحف.. وتريد الفراء الثمين والماس.. وتريد أن تنتقم من حياتها، ومن أيام مرت بها، وتأخذ من الدنيا بقدر ما أخذت الدنيا منها ومن أهلها.

وقامت وجمعت ملابسها التي كانت تحتفظ بها عنده، ثم تركته بعد أن قبلت يده..

وقبل أن تغلق وراءها الباب صاح يأمرها كعادته عندما كانت ترقص له: «اضحكي» ولأول مرة تخالف أمره.. فقد بكت.. بكت هذه المرة بدموعها لا بجسدها!

ولم تعد إليه منذ ذلك اليوم، وكانا إذا التقيا ابتسما وتصافحا، وكأنها لم تكن يومًا له ولم يكن يومًا لها، ولكن كليهما يتتبع أخبار الآخر، ولو عرفتها لعرفت أن كلا منهما يحتفظ بكراسة يجمع فيها كل ما نشرته الصحف للآخر، فهي تجمع مقالاته منذ بدأ يوقع الحرف الأول من اسمه في جريدة غير ذائعة الانتشار، إلى أن أصبح اسمه كاملًا وعلى صدر الصفحة الأولى من أي جريدة يختار.. وهو قد جمع صورها وما كتب عنها في الصحف منذ أن كتب اسمها في إعلانات رخيصة عن الفرق المسرحية المتجولة، إلى أن أصبحت نجمة وصاحبة شركة سينمائية تفخر المجلات بنشر صورتها على صفحاتها..

وكان يسمع عن قصص غرامها فيضحك.. يضحك لأنه يعلم أنها لا يمكن أن تحب، وعندما تحب يومًا فسيكون حبيبها من بين أفراد التخت أو من بين خدم «الصالة» أو أحد محترفي العشق الذين أجادوا ترويض هذه الأجساد الرخيصة والعقول الضيقة.. إنها مهما تمادت في رقيّها ومهما أسبغت عليها الدنيا من نعمها ومهما تظاهرت بالترفع وسعة العقل والتفكير، فستظل أبدًا إحدى راقصات شارع عماد الدين.. أما هذا المحامي الشاب وهذا الصحفي الكبير وهذا المليونير المشهور فليس كل هؤلاء وغيرهم إلا خطوات إلى الأمام..

وكان يحلو له أحيانًا أن يقارن بين نفسه وبينها، وبين جهاده وجهادها.. إنها ترقص على المسرح وهو يرقص على صفحات الصحف، وهي تعري جسدها أمام الناس وهو يعري روحه وأعصابه وعقله أمام قرائه، وهي تجتمع بكبار القوم في المساء لتبتز أموالهم، وهو يجتمع بهم في الصباح ليبتز أخبارهم، وهي ملك الجمهور تعيش له وبه، وهو أيضًا ملك للجمهور يعيش به وله، وهي صاحبة شركة سينمائية مفروض فيها نشر الثقافة وتأدية رسالة، وهو يحاول أن يكون صاحب شركة صحفية مفروض فيها نشر الثقافة نفسها وتأدية الرسالة نفسها، وهي تنتقل بين عشاقها وهو ينتقل بين الحكومات والزعماء والأحزاب، وقد تضطر كثيرًا أن تكذب وتخدع، وهو أحيانًا كثيرة يضطر لأن يكذب ويخدع، وهي تسافر إلى أقطار الدنيا لتجمع المال والمعجبين، وهو أيضًا يسافر ليجمع المال والمعجبين!

إنه جهاد واحد يجمع بينهما، ورسالة واحدة يؤديانها، وكل ما هنالك أن كلا منهما يعمل في ميدان منفصل.

وأخيرًا، وبعد أن وصلت إلى القمة - أو ظنت ذلك - حادثته بالتليفون ودعته إلى منزلها.. وقالت له وقد أحاطته بأهداب عينيها:

- لقد تعبت.. ألم تتعب مثلي؟!

قال:

- إن الراحة ليست من حقنا، وقد كان يمكنني أن أظل في حجرتي الضيقة حتى اليوم، وكان يمكنك أن تكتفي من الدنيا بالعشرة قروش التي كنت تأخذينها من جيبي كل صباح.. ولكننا أردنا المجد.. وهذا التعب الذي تشكين منه هو ضريبة المجد..

قالت:

- لقد تعبت من الوقوف على المسرح، ألا يمكنني أن أجلس ولو قليلًا مع الجمهور؟

قال:

- إن الجمهور أقسى علينا مما تتصورين، فهو لا يريدك إلا واقفة على قدميك، ويوم تجلسين حيث يجلس سيحتقرك ويصفق لغيرك..

قالت:

- لقد تعبت من التصفيق..

قال:

- إنه السياط التي تلهب ظهورنا في طريق المجد.. والأكف التي تصفق تستطيع أن تصفع.... فاحذريها.

قالت:

- إذن تعال قف معي، فأنت وحدك تستطيع أن تمنعني من الوقوع مغشيًا عليّ..

قال:

- لا أستطيع.. فقد رفع الجمهور كلًّا منا فوق قمة ولو خطا أحدنا نحو الآخر فسنسقط إلى الهاوية!!

قالت:

- أي هاوية؟

قال:

- كلام الناس..

وقبل أن يغادر الدار صاح يأمرها: «اضحكي».. وللمرة الثانية خالفت أمره فقد بكت.

ورفع رأسها بين يديه، وقال وهو يكبت أعصابه:

- لقد عودتني أن تطيعي أوامري.. قلت لك: اضحكي!!

ولم ترد وإنما انحنت وقبلت يده..

إنها اليد الوحيدة التي تعودت أن تقبلها!

ستة رجال وفتاة

وقعت حوادث هذه القصة في عام 1943 وأشخاصها جميعًا لا يزالون أحياء وما زالت أسماؤهم تتردد على ألسنة الناس كل يوم.. وقد اضطررت أن أغير من بعض الوقائع حتى أستكمل عناصر القصة - إن كانت قصة - وحتى أتستر على أبطالها الذين يهمهم أن تبقى ذكرياتهم في طي الكتمان..

* * *

عندما وضعت قدمها على أول درجة من درجات المجد، تلقاها بالتصفيق والهتاف ستة من الأدباء والفنانين.. وكان تصفيقهم وهتافهم لجمالها أكثر منه لمواهبها.

كانت جميلة، وفي جمالها وداعة الحمل الذي يغري الذئاب، وقد ظن كل منهم أنه يستطيع أن يقوم بدور الذئب دون أن يكلفه ذلك إلا أن يخفي أنيابه.

وبدأ كل ذئب منهم يضع خطة الهجوم، وقد بدأت الخطط كلها بطريقة واحدة، لا تتعدى إرسال الهدايا، وتدبيج المقالات في الإشادة بمواهب الحمل الوديع، ونثر الورود والرياحين في طريقه، وفتح أبواب المجد أمامه.. وقد فتحت بعضها عنوة بعد أن عجز الحمل عن فتحها بمواهبه.

وبعد أن مضت شهور، اكتشف الرجال الستة فجأة أنهم لا يصلحون للقيام بدور الذئاب، وأن الحمل الوديع استطاع أن يسلم من أنيابهم، لسبب واحد: هو أن كلًّا منهم كان يستعمل أنيابه كلها في نهش لحم زميله، محاولًا أن يبعده عن الحمل ليخلص له وحده!

واجتمع الستة في مكتب أحدهم، وعقدوا مؤتمرًا لتوحيد الجهود وتنظيم الصفوف، واقتسام الغنيمة.

وقد بدأوا أولًا بأن اعترفوا فيما بينهم أنهم جميعًا كانوا مغفلين، وسيظلون مغفلين إلا إذا اتفقوا على خطة معينة، إن لم تضمن لهم جميعًا الفوز بالفتاة فقد تضمن لواحد منهم الفوز بها، أو على الأقل تضمن لهم أن تنتهي هذه المهزلة التي تستفيد منها الفتاة وحدها.

وهنا ارتفعت أصوات الرجال الستة وكل منهم يدعي بأنه أحق بالفتاة من الآخرين.. هذا يستشهد بأنه كان أول من اكتشفها، والآخر يؤكد أنه هو الذي منحها المجد، والثالث مقتنع بأن فنها من فنه وأنها في حاجة إليه دون غيره.

وصاح واحد منهم:

- يا جماعة.. كل هذا لن يصل بنا إلى شيء.. ولنعترف أولًا بأن هذه الفتاة ليست ككل امرأة مرت بنا وطوتها ذكرياتنا، ولنعترف أيضًا بأن كلًّا منا لا يريدها لليلة أو لأسبوع أو لشهر، بل يخيل إليّ - أنا شخصيًا - أني أريدها العمر كله.. اعترفوا معي بأن ما بيننا وبين هذه الفتاة ليس عاطفة طارئة، بل هو حب.. حب صحيح تزداد حرقته كل يوم.. إن كلًّا منا يحب نفس الفتاة، والفتاة لا يمكنها إلا أن تحب واحدًا منا فقط - أو هذا على الأقل هو المفروض - فمن هو هذا الواحد؟

وسرت همهمة بين الجماعة وتحفز كل منهم ليتكلم، ولكنه قاطعهم قائلًا:

- إن واحدًا منا لا يستطيع أن يقول «أنا».. فالكلمة الأولى والأخيرة في هذا الموضوع الخطير يجب أن تكون للفتاة.. ويجب أن نتمسك بفضائل «الجنتلمان» ونترك لها حرية الخيار.. هل أنتم موافقون؟

وصمت الجميع برهة، ثم بدأت الرؤوس تهتز علامة على الموافقة، إلى أن سأل أحدهم:

- ولكن كيف نجعلها تختار بيننا؟!

وقال صاحب الاقتراح:

- المسألة غاية في البساطة.. ندعوها إلى جلسة تضمنا جميعًا، ثم يبدأ كل واحد منا يقول ما عنده عن نفسه، وما يستطيع أن يقدمه لها.. ثم نطلب إليها أن تختار رجلها بصراحة وبلا مواربة.. ولكن بشرط واحد وهو أن نقسم جميعًا الآن على أن نقول الحق ولا شيء غير الحق، وألا يحاول أحدنا أن يزيد في قدر نفسه أو يدعي ما ليس له.. حتى يكون الانتخاب حرًّا نظيفًا، وحتى لا نكون قد غررنا بالفتاة التي نرجو لها جميعًا السعادة والهناء مع أي رجل كان..

وتمت الموافقة على الاقتراح، وأقسم كل واحد أن يقول الحق ولا شيء غير الحق.

وفي منزل أحدهم اجتمع الرجال الستة وبينهم الفتاة..

وبدأ صاحب الاقتراح فقال:

- عزيزتي.. إننا اجتمعنا الليلة لنترك لك حرية الخيار بيننا، فأنت تعلمين أن كلًّا مِنا يتمناك ويتمنى أن يهبك قلبه، وحياته، وما ملكتِ يداه، وقد انتظرنا طويلًا

أن يفوز بك واحد من بيننا، ولكنك كنت حريصة على ألا تعلني اسم الفائز، وألا تعلني في الوقت نفسه انتهاء هذا السباق الذي أضنانا جميعًا، وكنت حريصة على أن تضعينا جميعًا في منزلة واحدة منك، فعدد الابتسامات التي نالها كل واحد منا متساوية تقريبًا، وعدد المرات التي قبلت فيها دعوة كل منا متساوية أيضًا.. وإني أشهد لك بالعدل والمساواة في معاملة شعبك الوفي.. ولكن.. العدل الكامل قد يوجد في الآخرة، ولكنه لا يوجد في الدنيا، ونحن قد قررنا أن نعيش في الدنيا وأن نترك لأحدنا فرصة الفوز بك ولكن في فوزه عزاء للآخرين.

وتنحنح الرجل، ثم رفع كأسه ورشف منها رشفة الظمآن، ثم عاد يقول:

- إن كلًّا منا سيقدم لك نفسه الآن، وقد أقسم أن يقول الحق ولا شيء غير الحق.. وعليك بعد أن ننتهي من تقديم أنفسنا أن تتخذي قرارًا بشأننا، ولو اخترت من بيننا واحدًا فلن يحقد عليك الآخرون بل سيظلون أصدقاء أوفياء لك ما عاشوا، إنما المهم أن يصدر قرارك صريحًا، وأن يصدر هذه الليلة بالذات.. هل توافقين؟

وابتسمت الفتاة، وأخفت وجهها بين يديها، وكأنها خجلت أن يطلب منها اتخاذ مثل هذا القرار، ثم رفعت رأسها وقالت في صوت خافت:

- موافقة..

وتكلم نفس الرجل يقول:

- لأبدأ بنفسي أولًا.. إنك عرفت عني الكثير، وسمعت عن مغامراتي مع النساء الكثير، وربما خيل إليك أن بعض ما سمعته أو قرأته هو مجرد تشنيع، ولكني أحب أن أقول لك أن ما يقال عني هو قليل من كثير، فأنا أناني إلى أبعد حدود الأنانية، وكنت أحلل أنانيتي بأني لن أستطيع أن أحب أحدًا إلا إذا أحببت نفسي أولًا، ولكني عندما أحببت نفسي لم أستطع أن أحب غيري، وأنا أيضًا غيور على كل امرأة تمتّ لي بصلة، وقاس في غيرتي، وهي غيرة أساسها أن هناك زوجات، وشقيقات وعاشقات، تركن أزواجهن وأشقاءهن وعشاقهن من أجلي.. فلماذا لا تتركني زوجتي أو شقيقتي أو عشيقتي من أجل غيري؟.. وأنا أيضًا ملول لم يدم حب في قلبي أكثر من شهور، ولا تحملت وجه امرأة أكثر من أسابيع.. أما ما أستطيع أن أقدمه لك فهو قلم يستطيع أن يرتفع بك إلى المجد، ويدر على صاحبه ذهبًا تستطيعين أن تبعثريه كيف شئت.. وثقي إني لا أريدك كامرأة، بل أريدك ممرضة تشفيني من الأنانية، والغيرة والملل وتلف الأعصاب.

وابتسمت له الفتاة ابتسامة يستطيع أن يفهم منها كل شيء، ويستطيع ألا يفهم منها شيئًا.. ثم أدارت رأسها للثاني، فقال وهو يضغط على غليونه بين أسنانه:

- إني إنسان فاشل، وقد استطعت أن أقتني من فشلي عزبة مساحتها مائتان وخمسون فدانًا من أجود الأطيان.. وفشلي لم يقتصر على عملي ككاتب، بل تعداه إلى مغامراتي مع النساء.. فما من مرة نجحت في اقتحام قلب امرأة.. فإن وقع عليّ اختيارك فكأنك اخترت أرضًا «بور» يعزيك فيها أنها معفاة من الضرائب، فإني لن أطالبك بشيء وسيكون لك أن تفعلي بي كل شيء.

وابتسمت له الفتاة نفس الابتسامة التي ابتسمتها للأول، ثم أدارت رأسها إلى الثالث، فقال ورأسه إلى الأرض، وكأسه ترتعش بين يديه:

- لا تبحثي عني في ثيابي بل ابحثي عني في ضلوعي.. فكل ما تراه عيناك ليس مني، وكل ما لا تراه عيناك فهو أنا.. أنا قلب يزخر بالمعاني ويصوغها أغاني، أنا فكرة يسطرها قلمي على الورق فتنير الحنايا.. وعيبي لدى النساء مظهري وشكلي، ووساطتي إليهن روح رقيقة، وأعصاب تنبض للجمال... وأنا أريدك لأصفح بك عن الدنيا التي ضنت عليّ بقوام التابعي، ورشاقة عبد الوهاب، ولن أعدك إلا بشيء واحد: هو المجد، فمجد أي فنان على طرف لساني وبين أصابعي.

وطاف ظل من التأثر في عيني الفتاة، ولكنها أبعدته سريعًا وابتسمت له نفس الابتسامة، ثم أدارت رأسها إلى الرابع، فقال وهو يمسح شفتيه بكف يده بعد أن ارتشف كأسه:

- إني أعلم الناس بأني قبيح الوجه، وليس لي ما يعوضني عن قبح وجهي، حتى ولا خفة الدم.. ولكني غني كما تعلمين. وأنت في حاجة إلى المال حتى تتمي بناء مجدك، كما إني شديد الاتصال بالأشخاص الذين تحتاجين إليهم في عملك، فأستطيع أن أقنعهم بأن يفسحوا لك الطريق.. وأنا أخيرًا، رجل قنوع يكفيني منك ابتسامة، وأن تظهري معي في المحال العامة، فهذا يرضي غروري، بل يكفيني منك أن تحبيني كوالدك، ولن تجدي لديّ مانعًا من أن يكون لك شاب في مثل سنك، فأنا رجل واقعي حتى ولو آلمني الواقع!

وابتسمت له الفتاة نفس الابتسامة، ثم أدارت رأسها إلى الخامس، فقفز واقفًا وصاح:

- أنا لا أوافق على هذا العبث.. وكيف تحرجون هذه الفتاة البريئة الوديعة بهذه الطريقة السخيفة التي لا تخطر إلا في رؤوس البرابرة.. إن الأمر لم يكن

يستدعي كل هذه السخافات وكل هذا الإحراج، فآنا.. وأنا وحدي، صاحب الفضل في اكتشافها.. وما قدمته لها بالفعل لم يقدمه لها واحد منكم، لقد قدمت لها الفن والمجد، بل قدمت لها اسمها وقدمت لها مصر كلها تهتف بهذا الاسم.. مش كده يا حبوبة.. إن الأمر لا يحتاج منك إلى كثير من التفكير، أليس كذلك يا عزيزتي؟! إني أنا الرجل الكامل من جميع نواحيه.. فن، ومال، ورجولة، وعلى رأي أولاد الفقراء المساكين اللي بيجروا علشان احنا نشبع، وبيتعروا علشان احنا نلبس... على رأي الجماعة دول «مال وجمال»!!

وابتسمت له الفتاة نفس الابتسامة، ثم أدارت رأسها إلى السادس، فابتسم وقال:

- إني أصغر المتقدمين إلى الانتخاب سنًّا، بل أخشى إني لم أكمل السن القانونية لدخول الانتخاب، فإذا استثنينا شرط السن، فأنا مثلك ما زلت في بداية الطريق، إذا كنت أنت في حاجة إلى من تتوكئين على ذراعه لتصلي إلى القمة، فأنا أيضًا أبحث عمن أتوكأ على ذراعها لأصل إلى القمة.. فهل تحبين أن يتوكأ أحدنا على الآخر حتى نصل معًا؟

وابتسمت له الفتاة نفس الابتسامة، ثم صمتت طويلًا، وقد وضعت رأسها بين يديها ونكسته وراحت تفكر..

وأخيرًا رفعت رأسها وقالت:

- إني أعتقد أن الحب هو تجاوب بين قلبين، فإذا كنت قد أحببت واحدًا منكم - وأنا فعلًا أحب أحدكم - فيجب أن يكون قد شعر بهذا الحب حتى ولو لم أحاول أن أشعره به.. أما أن أقول صراحة إني أريد «فلانًا» أو «فلانًا»، فهذا ما تأباه كرامتي ويمنعني عنه حيائي.

وعادت إلى الصمت فترة، ثم قالت:

- إني أقترح أن تخرجوا جميعًا من الغرفة إلا الشخص الذي يعتقد أنه شعر بحبي له.. وإذا صدق شعوره فسأكون له!

وتردد الجميع والتفتوا بعضهم إلى بعض حيارى، ثم قام الثاني - حسب ترتيب المتكلمين - وخرج، وأعقبه الرابع، ثم تنهد الثالث وكأنه يحرق قلبه وقام وخرج، وتلفت الأول حوله ثم نظر إلى الفتاة نظرة ساخرة وقام وخرج!

وبقي الخامس والسادس.. وكان الخامس واقفًا كأنه يستعد لإطلاق «مترليوز»، وكان السادس يجيل بصره بين الفتاة وبين زميله.

وأخيرًا قام السادس وخرج!

والتقى من خرجوا في الغرفة وسادهم صمت حائر.

وفجأة ظهر الخامس داخلًا إليهم، ذليلًا منكس الرأس.

* * *

وعادوا جميعًا إلى الفتاة فوجدوها تبكي..

كانت تبكي الرجل الذي أحبته ولم يشعر بحبها!..

خريستو

مات «خريستو» مدير ملهى «ال...» وكان إلى عهد قريب أكبر ملاهي القاهرة... مات الرجل الطيب الفاضل الذي عاش في دنيا الحرام!..

كان شابًّا مفتول العضل قوي البنيان، وكانت مهمته الأولى أن يستخدم عضلاته المفتولة وبنيانه القوي في فض المنازعات التي تقوم بين الزبائن، وفي طرد البلطجية الذين يترددون على الملهى لابتزاز نقود الراقصات، وفي محاسبة الذين يترددون في دفع الحساب..

ولكن خريستو لم يستعمل عضلاته أبدًا، بل كان يستعيض عنها بابتسامته ولباقته، واستطاع أن يكون صديقًا شخصيًّا لكل زبائن الملهى - حقيرهم وكبيرهم - ولعل الوجيهين محمد شعراوي بك ومحمد سلطان بك لا يزالان يذكران كم كلفتهما صداقة خريستو - في الأيام الخوالي - وكم كلفته صداقتهما!!

وهذا الرجل الذي عاش في دنيا مدنسة لا تفهم للحب معنى إلا متعة الجسد، ولا يدوم الإخلاص فيها إلا ريثما تفرغ زجاجة الشمبانيا أو تفرغ محفظة الزبون.. هذا الرجل كانت له قصة حب خالدة.. حب بريء عف طاهر ارتفع به إلى مرتبة أبطال القصص الخيالية!

وتبدأ القصة - كما رواها لي - منذ سبع سنوات؛ فقد أحب فتاة يونانية وأحبته، ولم يكن من حبها إلا لقاء بريء إثر لقاء بريء وقبلة طاهرة إثر قبلة طاهرة.. وقد أكسبه هذا الحب وداعة كان يبدو بها بين راقصات الملهى الشرسات كأنه عذراء، وهو المفروض فيه أن يقوم دائمًا بتمثيل دور الذئب!

وكم رفض خريستو من عروض مغرية في سبيل حبه.. عروض الذهب الذي كانت الراقصات يلقينه تحت أقدامه في سبيل ليلة أو بضع ليال، وعروض السفر إلى الخارج برفقة راقصة أو مغنية جاءت إلى مصر ووجدت في خريستو قربة الماء الساخن التي لا تستطيع أن تستغني عنها لتدفئة فراشها.. وقد رفض خريستو كل ذلك في سبيل اليونانية الصغيرة التي أبت عليه إلا لمسة اليد وبضع قبلات خاطفة!

ومر عامان وتقدم خريستو يطلب يد الفتاة من أهلها. وقبلت الفتاة بلهفة، ولكن العائلة رفضت، فقد كان مركز خريستو - في نظرهم - لا يتناسب مع مركزهم، ولم يكن غناه يتناسب مع غناهم.. رفضوا، ثم أسرعوا وزوجوا ابنتهم إلى ثري عجوز من أثرياء اليونانيين المقيمين في مصر!

وكانت صدمة أحس بعدها خريستو أنه لن يكون له نصيب في دنيا الشرف والحب البريء، فراح يعربد ويعرض نفسه للبيع في دنيا الغواني، لتلقفه صدر عجوز متصابية أغدقت عليه من مالها ونعمها حتى لم ير مانعًا من الزواج بها..

ولكن هل مات الحب في قلبه أو في قلب الفتاة؟!

لا...

لقد مضت الشهور ثم عادا إلى اللقاء.. وفي هذه المرة لم يكتفيا بلمسة اليد ولا بالقبلة الخاطفة، فقد كانت هي زوجة خائنة، وكان هو زوجًا خائنًا، وكان بينهما وبين الحب العذري ثأر قديم لأنه لم يشفع لهما لدى القدر ولا لدى عائلة الفتاة عندما أرادا الزواج.

ولكنهما لم يستطيعا أن يضحكا على أنفسهما طويلًا، ولم يستطيعا أن يعيشا كزوجين خائنين، فهي تحبه ولا تتحمل رجلًا غيره، وهو يحبها ولا يتحمل امرأة غيرها.. فطلق هو زوجته وتحايلت هي كثيرًا وقاست طويلًا حتى طلقت من زوجها..

وعاشا طليقين في دنيا الحب..

ولكن خريستو كان قبل كل شيء رجلًا شريفًا، يؤمن بالله، ويؤمن بالحب الذي تبيحه الأديان، وكان يشعر دائمًا أن حبه رغم ما تجمع له فيه من متعة، إلا أنه ينقصه أن تباركه السماء، وأن يشهد عليه القسيس..

وكانت الفتاة أيضًا مؤمنة بالله، وكانت حيلتها الوحيدة صليبًا من ذهب يتدلى فوق صدرها، وكانت كلما ضمها خريستو إلى صدره أحست بالصليب يشك قلبها ويقف حائلًا بينها وبين حبيبها، كأنه غضب الله..

كان الاثنان مؤمنين شريفين، فلم يتحملا طويلًا الحب الحرام، ولم يتحملا أن يضحيا بالضمير في سبيل الحب، وبالإيمان في سبيل القلب.. فقررا الزواج، وفي هذه المرة لم يكونا في حاجة إلى استئذان العائلة!!

وفي الليلة التي تم فيها الزواج، شاهد زبائن الملهى خريستو كما لم يشهدوه من قبل.. كان المرح يتدفق من خلجات وجهه، وكانت عضلاته ترقص فوق قوامه الفارع.. وبدأ ليلتها كأنه إله نشوان فر من فوق قمم جبال الأولمب ليمنح السعادة لبؤساء الأرض..

وفي الليلة الثانية اختفى خريستو.. وسألوا عنه، فقيل لهم إنه مريض مرضًا عابرًا بسيطًا..

وطال غياب خريستو.. فسألوا عنه مرة ثانية، فقيل لهم إنه مريض مرضًا خطيرًا مستعصيًا!

وكان مرضه غريبًا.. فقد أصيب بتيفوئيد في المصارين، وهو محتاج إلى علاج بالثلج، وأصيب في الوقت نفسه بالجديري، وهو محتاج لعلاج بالمكمدات الساخنة. وإذا اجتمع المرضان فلا مفر من أن يقضي أحدهما على المريض..

وقد قضى على خريستو..

مات...

مات ولم يمض على دخوله الحب الحلال أيام معدودات..

لقد كان الحلال محرمًا عليه، وكان مقدرًا له أن يعيش في دنيا الخمر والرقص والعربدة، وقد وهبته الطبيعة عضلاته القوية وبنيانه القوي ليضرب بها الناس ويؤذي خلق الله.. ووهبته قوامه الفارع الرشيق ليبيعه للنساء المحترفات.. فلما خالف ما كان مقدرًا له، وعاند الطبيعة، وأراد أن يعيش مؤمنًا تقيًّا وادعًا، وأن يتقدم بحبه ليشهد عليه السماء... مات!!

وللأقدار حكم!...

أسطورة

قابلتها على شاطئ سيدي بشر.. وقد قابلتها هناك وفي نفس المكان منذ اثني عشر عامًا، وكنت في السابعة عشرة من عمري، وكانت تصغرني بعامين، وعشنا في قصة دامت ثلاثين يومًا كتبنا الكلمة الأولى منها بالدم..

وعندما أقول «الدم»، فإني لا أغالي.. فقد كانت فتاة قضت عمرها بين كتب الأساطير وأرادت أن تجعل من حبها أسطورة، فاقترحت أن أجرح إصبعي لتمص منه دمي، وأن تجرح إصبعها لأمص منه دمها، وفعلنا.. وسرى دمي في عروقها، وسرى دمها في عروقي، وخيل إلينا بذلك أننا ارتبطنا إلى الأبد!..

ولكن الأبد لم يدم سوى ثلاثين يومًا افترقنا بعدها لنلتقي بين الأعوام في نظرات خاطفة صامتة يقطعها علينا زوج كريم، هو زوجها، وأطفال كأعواد الورد، هم أطفالها الثلاثة!..

ولم ألتق بها يومًا، إلا وشعرت بدمها في عروقي وأحسست بطعمه وسخونته - طعم الدم وسخونته - بين شفتي وعلى طرف لساني، ويخيل إليّ أني مدفوع إليها بقوة لا أدريها، وأنها قطعة مني انفصلت عني، ثم ضاعت، وأن من حقي أن أستردها لأعيدها إلى مكانها بين جنبي، بل يخيل إليّ عندما أراها أني أرى دمي في عروقها، وأن هذا الدم يحاول أن ينفجر ليعود إلى سيده ومولاه!

وأعتقد أنها تبادلني نفس الشعور. فهذا الضعف الذي يبدو على وجهها كلما رأتني، وهذا التخاذل الذي ينتابها حتى لتتعلق بذراع زوجها وتلتصق به في قوة وكأنها تخشى أن تطير من جانبه لترتمي بين ذراعي، وهذا النور الذي يلمع في عينيها وكأنه انعكاس أضواء نار هبت فجأة في عروقها.. كل هذا يجعلني أؤمن بأن الأسطورة - أسطورة الدم - التي آمنا بها يومًا، ما زالت تعيش في قلبينا وتسيطر على أعصابنا وما زالت تهتف في أعماقنا كتراتيل كاهن من عبدة السحر يدعو إليه الشياطين!

ولم أقابلها يومًا في هذه المرات الخاطفة إلا وعشت معها في الأوهام أيامًا.. أوهام يختلط فيها الماضي بالحاضر بالمستقبل.

الماضي: يوم كانت تقفز من نافذة بيتها لتلتقي بي في صحراء سيدي بشر، وقد كانت تستطيع أن تخرج من الباب ولكنها كانت تفضل دائمًا أن تخرج من النافذة، فهكذا قرأت في كتب الأساطير..

الماضي: يوم كانت تغمض عينيها، ثم تميل على صدري وتهمس في حنان قائلة:

- يا حبيبي برداليان..

أحاول أن أحتج، ولكنها تضع إصبعها الرقيق على شفتيّ وتقول:

- صه.. لا تحاول أن تذكرني أن اسمك فتحي!

الماضي: يوم جاءتني هلعة وفاجأتني وهي تسألني:

- كم معك؟

قلت:

- عشرون قرشًا.

قالت:

- وأنا معي خمسون.. إنه مبلغ كاف!

قلت:

- كاف لماذا؟!

قالت:

- للهرب..

وقالت لي إن أهلها اكتشفوا علاقتها بي، وإنها اعترفت لهم بأنها تحبني وتريد أن تتزوجني، فحاولوا إقناعها بأني لا أصلح للزواج، فلست صاحب مجد، ولست وارثًا ولن أرث شيئًا، كما أني ما زلت طالبًا في المدارس الثانوية، والمهم أني ولد «بايظ».. وقد عارضتهم في رأيهم المتواضع فيّ، وقالت إنها تريدني كما أنا، وإني أحاول أن أبدو سافلًا، ولكني لست بسافل!!، ثم قفزت من الشباك كعادتها وجاءت لتهرب معي..

وقد وافقتها على الهرب، ولكن هربنا لم يدم سوى نهار واحد، فقد دفعنا كل ما نملك من مال ثمنًا لوجبة طعام واحدة في كازينو الشاطئ، فعادت إلى بيتها وعدت إلى بيتي، وقد اتفقنا على أن تسرق ما يصل إلى يدها، وأن أسرق ما

يصل إلى يدي ثم نعاود الهرب.. ولكنها لم تسرق شيئًا فقد حملتها عائلتها وعادت بها إلى القاهرة، ثم نقلوها إلى عزبتهم بالريف، ولم تخرج منها إلا للزواج من طبيب شاب هو نعم الزوج.

هذا هو الماضي، بجنونه وشبابه وروعته، الماضي يوم كنت وكانت تعيش في السماء ونرى الدنيا بعين خيالنا ونعيش فيها كما نحب لا كما تحب لنا.

والحاضر: إنها زوجة سعيدة وأنا زوج سعيد، ولكننا نزلنا من السماء لنعيش على الأرض وأصبحنا نؤمن بالواقع ولا نؤمن بالخيال، ونخلص لحاجتنا ولا نخلص لأرواحنا. إنها أحيانًا تريد أن تعود إليّ وأحيانًا أريد أن أعود إليها.. ولكننا لن نعود.. لأننا كفرنا بالأساطير رغم أنها تعيش في دمنا، وآمنا بيومنا رغم أنه ليس منا..

والمستقبل: لا يلوح لنا فيه شيء، إلا أن تدعو لي، وأدعو لها!!

فتاة

عرفتها بعد أن سمعت عنها.. عرفتها على شرفة فندق الكونتنتال فتاة تقطر شفتاها سفالة، وتنطق عيناها بثورة تحس أنها ثورة على نفسها أكثر منها ثورة على الناس.. وتتكلم بلكنة فلسطينية تجعلك تحاول أن تأكل الكلمات من على طرف لسانها!

وسمعت عنها إنها إحدى المهاجرات من فلسطين فضّلت أن تقيم في فندق الكونتنتال على أن تسلم نفسها لمعتقل اللاجئين.. والإقامة في الفندق لم تكلفها شيئًا اللهم إلا نظرة فابتسامة فسلام.. إلى آخر الطريق الذي خطه شوقي الشاعر لبنات الجيل!!

وكان كل ما يميزها عن بنات الجيل أنها من عائلة فلسطينية كريمة ثرية، رجالها مجاهدون ونساؤها مجاهدات، وقد استشهد منهم من استشهد وتشرد الباقون في الأقطار العربية يبحثون عن بقية من الحياة.

وكنت أنتظر أن أسمع منها حديثًا عن الجهاد، أو أرى في عينيها دموعًا تبكي الأهل المشردين والعز الضائع وترثي بها الوطن ومرتع الصبا.. ولكني لم أسمع حديثًا عن الجهاد ولم أر دموعًا، بل سمعت ضحكة فاجرة رنّت في أذني كصوت صفارة الإنذار ورأيت في عينيها دعوة كادت تنسيني أني زوج وصاحب عيال!

إنها مشكلة.. هذه الفتاة.

لقد جاءت إلى القاهرة طاهرة نقية فأسلمت نفسها منذ اليوم الأول إلى أندية الليل وكرهت أن يحدثها أحد عن فلسطين وجهادها وأبطالها وحربها، بل كان يكفي أن تسمع اسم عبد الرحمن عزام لتمد يدها إلى الكأس فتقذف بها في جوفها.. علّها تنسى!!

كرهت كل ذلك وعاشت لياليها تنتقل بين القاهرة والإسكندرية مرحلة عابثة لا همّ لها إلا أن تضحك وتسكر وتتلذذ بحاشية من عباد الجمال تطأ أقفيتهم بقدميها وتصفع وجوههم بضحكاتها!..

وكان من المحال أن تهديها أو تعيد إليها الرشد.. فقد أحبها رجل من عائلة وعرض عليها الزواج.. عرض عليها اسمًا كريمًا ومنزلًا كريمًا، فرفضت واكتفت بأن أفلسته وضيعت رصيده على سلسلة من النزوات الغريبة الشاذة..

ودعتها سيدة كريمة إلى بيتها، وعرضت عليها أن تستضيفها حتى تنتهي مشكلة فلسطين فتعود إلى أهلها ووطنها.. ولكنها رفضت، ثم سلبت زوج السيدة وفرت به، ولم تنبذه إلا بعد أن تم الطلاق..

وشيء واحد تستطيع أن تتأكد منه في هذه الفتاة، هو أنها لا تحب أن يرثي أحد لها، ولا أن يشفق عليها أحد، ولا أن يمد لها يده على سبيل الإحسان.. إنها تفضل أن يقال عنها «مومس» على أن يقال عنها «مسكينة»، وتفضل أن يقبض عليها بوليس الآداب على أن تستضيفها الحكومة في ملجأ المهاجرين، وتفضل أن يدعوها رجل لأنه يشتهيها على أن يدعوها آخر لمجرد أن يملأ بطنها بالطعام.

وربما كان هذا هو سر جميع تصرفاتها، فقد رفضت الزواج، لأنها ظنت أن الرجل أشفق عليها، وأراد أن يؤويها بعد تشرد، وسلبت زوج السيدة، لأنها كرهت في هذه السيدة نظرتها التي تحمل معاني العطف والرثاء، وفضّلت أن تحس منها الحقد والغيرة.. والحقد أخف على النفس الأبية من الرثاء!!

إنها امرأة خطرة.. لأنها امرأة تنتقم!!

وهي تنتقم من القدر الذي اختار لها فلسطين وطنًا، وتنتقم من الأيام التي سلبتها كل شيء حتى عزة نفسها، وتنتقم من شهور النحس التي جعلت منها بين الشعوب فتاة يرثى لحالها، لا تستطيع أن تعيش شريفة إلا إذا تنازلت عن شعورها بكيانها كفتاة جميلة من عائلة يحفي الرجال وراءها وتكل أيديهم في طرق بابها، وتكتفي من هذا كله بالانزواء في ملجأ ليس فيه حياة، وليس فيه ثياب، وليس فيه معجبون، وليس فيه إلا حراس يمدون أيديهم بالطعام وفي أعينهم نظرة من الترفع والتفضل تأباها بنت الأصل وسليلة الحسب والنسب.

وسألتها:

- لماذا لا تلجئين إلى أحد معسكرات اللاجئين؟

قالت:

- لو فعلت هذا لما رأيتك، وربما أرسلت مندوبًا عنك يلتقط صورتي وتنشرها في صحيفتك لتثير بها الشفقة عليّ، أما هنا فقد جئتني بنفسك وجئتني في أفخر ثيابك وانتقيت بدقة رباط عنقك، وتعمدت أن تترك هذه الخصلة من شعرك تتدلى على جبينك فقد تحوز بكل ذلك عطفي ورضائي، ولست أنت الكاتب الوحيد الذي جاءني مدعيًا أنه جاء لينقذني، فقد جاءني كتّاب أكبر منك شأنًا واسمًا، وكنت أتلذذ أن أرى في عيونهم هذا التوسل الذي يبدو الآن في

عينيك، وأرى على شفاههم هذه الرعشة، التي ترتعش بها الآن شفتاك، وأقرأ في رؤوسهم هذه الآمال التي تدور الآن في رأسك.. ولو أني التجأت إلى أحد المعسكرات لما فزت بهذا الشرف الكبير.. شرف التعرف عليك وعلى زملائك الأفاضل.

وسكتت ونظرت إليّ نظرة تستطيع أن تجد مثلها في عيني أي «ارتست» تتقاضى ثمن نظراتها. فقلت لها:

- أكملي، فإن هذه الكلمات هي كل ما بقي لك.. أكملي فإني أرثي لك إلى حد أن أتحمل منك كل شيء.. وإن آخر من يلام في فلسطين، أهلها!

ومدت يدها إلى الكأس فأفرغت ما بها في جوفها، ثم حطمتها على الأرض، وقامت وهي تقول من بين أسنانها:

- يا وغد.. كلكم أوغاد!!

الجيل الجديد

هذه قصة صديق من زملائي في الجهاد وزملائي في مدرسة فؤاد الأول، عرفه الناس بطلًا من أبطال القضايا السياسية، وسمعوا باسمه في كل مرة أُعتدي فيها على زعيم أو ألقيت قنبلة.. وقد قبض عليه أكثر من مرة، وحكم عليه أكثر من مرة.

وسيفهم القارئ لهذه القصة أن جهاد صديقي لم يكن خالصًا لوجه الوطن، ولكن ليس معنى ذلك أني أتهمه في وطنيته أو أطعنه في إيمانه بمبادئه التي افتداها بحياته وبمستقبله، ولكن العمل في سبيل الوطن لم يخل أبدًا من دافع شخصي في كل فترات التاريخ، وهو غالبًا دافع شريف يسمو بالإنسان ويخلق منه بطلًا.

* * *

عندما اشترك في أول جريمة سياسية - إذا اعتبرنا كل عمل عنيف جريمة - كان لا يزال طالبًا ولم يكن يقدر خطورة ما فعله وما هو مقدم عليه من تحقيق النيابة العامة ثم المحاكمة، وقد دفعه إلى الاشتراك في هذه الجريمة حماسته العنيفة للمبدأ السياسي الذي يدين به وتدين به عائلته كلها، وإلحاده بجميع الزعماء.. وكان يؤمن الإيمان كله بأن أبواب المستقبل لن تفتح إلا إذا طرقتها يد مضرجة بالدم!.. وكان مستعدًّا لأن يغمس يده في الدم ليدق بها أبواب مستقبل مصر ومستقبله هو أيضًا كشاب يطمح في أن يكون له شأن.

وعرفت عائلته بما فعله فلم يلمه أحد من أفرادها، فالجرائم السياسية العنيفة كانت حكمًا مقدرًا على العائلة يتوارثونها جيلًا بعد جيل، وإنما قدروا ما هو مقدم عليه من أيام سود قد تهدم مستقبله وتبعثر سنوات عمره في السجون، فكان أول ما سعى إليه عميد العائلة هو أن يخفيه عن أعين البوليس إلى أن ينجلي الموقف ويتحدد مركزه من الجريمة، حتى لا يقضي الفترة التي تسبق المحاكمة في السجن الاحتياطي، وحتى يدبروا له الأدلة التي تكفي لتبرئة ساحته.

أين يخفونه؟

وتذكر عميد العائلة أن له نسيبًا لا يختلط به ولا تربطه به صداقة قوية وإن كانت تربطه به صلة النسب البعيد، وصلة المبدأ الوطني الواحد، وصلة الدم النقي والنفس الكريمة.. فأرسل ابنه إليه ليقيم عنده أيامًا وشهورًا لا يخرج من الدار ولا يعلم بوجوده بينهم أحد.

والتقى صديقي هناك بفتاته وملهمته في الوطن... إنها ابنة صاحبة الدار، فتاة - كما يصفها صديقي - في عينيها مظاهرة تهتف بسقوط الاستعمار البريطاني، وبين شفتيها نداء إلى الثورة، وفي لمسات يديها دعوة إلى تأليف جمعية... وقد استقبلته على الباب وهي تعلم أنه أتى إليهم هاربًا من البوليس السياسي، فأطلت عليه بعينيها وكأنها تبحث في ثيابه عن البطل أو عن الفارس الجميل الذي صورته لها أحلامها. ولكن الفارس الجميل كان خجولًا، وقد عرف بيننا - ولا يزال معروفًا - أنه أخيب خلق الله في مغامراته الغرامية، فاكتفى منها بنظرة واحدة شعر بعدها ولأول مرة بأن له قلبًا يدق.

وعاش بينهم عشرين يومًا جمعته ساعات طويلة منها بفتاته، فكان يحدثها في كل شيء إلا عن حبه، وكانت تحدثه في كل شيء إلا أنها أحبته هي الأخرى.. ورغم هذه الساعات الطويلة فهو لم يرها أبدًا ملء عينيه، وإنما كان يلتقي بها في نظرات مرتعشة مختلسة لا يكاد يرفعها حتى يخفضها خوفًا من نفسه على نفسه!

وانقضت الأيام العشرون وسكتت عنه تحريات البوليس وأصبح آمنًا على حريته، فكان يجب أن يغادر الدار التي اختبأ فيها شاكرًا، ولكنه غادرها مضطرًّا بعد أن عجزت جميع حججه وتعللاته لإطالة إقامته فيها.

وعاد إلى داره فلم يستطع أن يقيم فيها هادئًا.. إنه يريد أن يعيش في الدار الأخرى! يريد أن يرى فتاته الوحيدة التي سكنت قلبه ورأسه وأعصابه، لا أن يراها فحسب بل ويعيش معها.

وكان يستطيع أن يزورهم من آن لآخر، ولكنه لم يزرهم ولا حتى لأداء واجب الشكر، فهو لا يريد أن يذهب إلى هناك فيستقبلونه في «حجرة المسافرين»، وتدخل إليه فتاته في ثوب ترتديه لكل غريب، وفي زينة تخرج بها في الطريق ليراها كل عابر سبيل، إنما يريد أن يذهب إليهم ليعيش بينهم كما كان يعيش مدى العشرين يومًا، واحدًا من أهل البيت.. وليراها كما لا يراها أحد.. يراها في الصباح قبل أن تغسل وجهها والنوم لا يزال يطوف بعينيها وكأنه يعز عليه فراقها، ويراها وهي تشرف على الخدم وتحاسب الطباخ وتشترك في تقشير البطاطس وتخريط الملوخية، ويراها في ثوبها المنزلي العادي الذي لا تكلف فيه ولا تصنع، ويراها كما كان يختلس إليها النظر أحيانًا وهي في «برنس الحمام» تخطو مسرعة إلى غرفتها، ويراها عندما تنتهي من كل شيء فتجلس إليه وأصابعها تقفز بين خيوط «التريكو» لتحدثه ويحدثها عن مستقبله ومستقبلها دون ربط المستقبلين بعضهما ببعض، وتسأله بين حين وآخر في لهفة وجزع عما يمكن أن يحدث له لو اكتشف البوليس مخبأه.

فقد فقدت الآن لهفتها عليه وجزعها من أن يقبض عليه، لأنه فقد ثوب البطولة الذي كان يرتديه أمامها طوال العشرين يومًا التي قضاها بين عينيها، وأصبح شابًّا عاديًّا لا يميزه في نظرها شيء، فلا البوليس يطارده ولا هو متهم في جريمة سياسية.

إذن فليس هناك طريق ليعود إليها كما يريد أن يعود، إلا أن يشترك في جريمة سياسية أخرى ليطارده البوليس من جديد، ويعود بطلًا كما كان، ويختبئ في دار الفتاة من جديد. ويعود بطلًا كما كان..

وعندما ارتكب صديقي جريمته السياسية الثانية كان مخلصًا في ارتكابها وكانت تتمشى في جميع أهدافها مع المبادئ التي يؤمن بها ونؤمن بها جميعًا، ولكن لم تكن حماسته الوطنية هي كل ما دفعه إلى ارتكابها ولا كل ما ألهمه بها.

وعاد إلى نفس الدار ليختبئ فيها، وعاش أسابيع يرى فتاته كما يحب أن يراها، ثم اضطر أن يخرج من الدار ليسلم نفسه إلى النيابة، ثم عاد ليختبئ فيها مرة ثانية - والتفاصيل ليس من حقي الإفاضة فيها - وعندما انتهت القضية، كان قد وضع جميع تفاصيل جريمته الثالثة!!

واستغرق نظر الجريمة الثالثة أمام النيابة والقضاء عدة سنوات كان من حقه خلالها أن يختبئ المرة تلو المرة، في بيت الفتاة التي أحبها لأنه أحب وطنه، وأحب وطنه لأنه أحبها..

وعندما انتهت القضية الثالثة كنت أؤمن بأن صديقي يرسم خطوط الجريمة الرابعة، ولكني قابلته فوجدته إنسانًا جديدًا، إنسانًا هادئًا أخرج رأسه من نطاق عواطفه الوطنية وبدأ يبحث وراء متاع الدنيا، ولم يستقبلني صائحًا كما كان يصيح دائمًا:

«احنا لازم نشتغل.. البلد ما عندهاش وقت»، بل استقبلني بسؤال لم يخطر لي يومًا أن يجيئني منه هو بالذات، فقد سألني: «انت بتكسب كام من الصحافة دلوقت؟» وأجبته، ففرك يديه فرحًا ولمعت عيناه بنور الأمل.

وأكثر من ذلك، فقد انقضت أيام فإذا به يبيع نفسه للشيطان!

ولا تسألني من هو الشيطان!

ولكن سلوني لماذا تطور صديقي هذا التطور الذي إن لم يفقده وطنيته فقد تطرف به وأفقده روحه الفدائية.

الجواب: لقد تزوجت الفتاة التي أحبها.. تزوجت شخصًا أقل منه وطنية وأكثر مالًا.. وانتقلت إلى بيت ليس من حقه أن يختبئ فيه!

الفيلسوف

كانت فتاة..

وعندما فقدت شرفها لم تحس أنها فقدت شيئًا ثمينًا يستحق أن تحرص عليه.. ففقدته كما فقدت أباها، وكما فقدت أمها، وكما فقدت كل يوم من أيامها.

لقد تعودت أن تفقد كل شيء ترتطم به حياتها، ولم يكن شرفها هو كل ما في حياتها، بل كان هناك بيت فقدته وطردت منه، وكان هناك أمل معلق بين عيني شاب، ففقدت الأمل وفقدت الشاب، وكان هناك مصحف صغير مغلف بالذهب، فقدته لتشتري بثمنه ثوبًا ونصف رغيف تقتات منه، ثم كانت هناك كبرياء وعزة نفس فقدتهما، وهي تمد يدها تسأل العون من قريب لها فطردها.

وعندما سمعت أن «شرف الفتاة» هو أعز ما تملك دهشت وردت على الأعين التي ترثيها وهي تتساءل: هل الشرف أعز من الحياة نفسها، وهل هو أعز من شبع المعدة، ودفء الجسد، وهل هو أعز من سرير أبيت عليه؟!

وسارت في الحياة ورأسها تسيطر عليه خرافة واحدة، هي أن كل شيء تمسه بيدها ينقلب إلى فقر!

أحبها شاب عراقي من عائلة ذات سطوة ونفوذ، وعرض عليها الزواج فرفضت، كانت تكتفي منه بليلة تختطفها من عمره، فإذا أصبح الصباح لم يجدها بجانبه فيدور يبحث عنها، فإن وجدها بعد أيام أو بعد أسابيع وسألها: أين كنت؟

أجابت: لقد فضّلت أن أتركك وأنت لي، على أن أتركك وقد فقدتك!

كانت تطرد الناس من حياتها طردًا، فقد كانت تخشى عليهم من النحس الذي يسير بين قدميها ويطل من عينيها، وكانت تهب نفسها لساعة أو ليلة ثم تفر هاربة، وترفض أن تعيش في حياة إنسان يهبها الطمأنينة والأمان!

كانت تعتقد أنها نحس، وكانت طيّبة القلب إلى حد أن تخشى على الناس من نحسها.

إلى أن قابلته وكان مهمومًا حزينًا، همه وحزنه يشعان من قسمات وجهه ومن حركات يديه ومن هزات رموش عينيه.. كان يشرب الخمر ثم يضحك، فتحس أن عينيه قد اصفر لونهما ألمًا لرنين ضحكاته، وكان يرقص فتحس أن شفتيه تئنان تحت وقع كلماته.

ولم يطلب منها شيئًا حتى ولا أن تسري له عن همه وحزنه، بل كان يعتبر وجودها بجانبه شيئًا يجب أن يوجد كقطع الأثاث المتناثرة وجدران الغرفة التي تحيط به.

ولم تفر منه بل فرت إليه، فقد أحست أن نحسها لا يمكن أن يزيد مصائبه شيئًا، وأحست أن فيه شيئًا لم تفقده هي وقد فقده هو..

إلى أن سألته يومًا:

- هل فقدت شيئًا؟

قال:

- ماذا تعنين؟

قالت:

- هل فقدت أبًا وأمًّا كما فقدت أنا أبي وأمي.. هل فقدت بيتًا كما فقدت أنا بيتي.. هل فقدت كبرياءك كما فقدت أنا كبريائي؟ هل؟!

قال:

- لا.. إن لي أبًا وأمّا أبقاهما لي الله، ولم يكن لي بيت فوهبني الله بيتًا كاملًا توفرت له أسباب السعادة كاملة، وصان الله كبريائي، وأغدق من رزقه عليّ.. لا لم أفقد شيئًا مما تعنين.

قالت:

- قد تكون فقدت شيئًا لا أعنيه؟

قال بعد صمت طويل احتارت معه فيه:

- نعم فقدت.. فقدت لذة التمتع بما وهبني الله، أن الناس يرون ما بين يدي جميلًا ولا أرى أنا جماله، وأقدم لهم ما لديّ فيشعرون بلذته، ولا أستشعر أنا له لذة، ويغبطونني على شيء ولا أغبط نفسي عليه.. إن الله يحرم أناسًا من شيء، ثم يعطيه لآخرين يحرمهم من لذة التمتع به.

قالت:

- إذن فأنا أسعد منك، فإني لم أفقد لذة التمتع بما فقدته، وهذا خير من أن أفقد لذة التمتع بما عندي..

قال:

- هو ذلك!

قالت:

- إذن، فأنا لست نحسًا!

قال:

- هو ذلك!

وسافرت إلى العراق لتتزوج!

بيتي

جلست إلى آنسة شيوعية أو «تقدمية» - كما تصف نفسها - ودار بيني وبينها نقاش حاد انتهى إلى ما يشبه الصراخ، وكانت تتكلم فتبرق عيناها ببريق حقد مقيت، وتلتوي شفتاها كأنهما أصيبتا بشلل نصفي، وتهز يديها في الهواء كأنها تنتفض في حفلة زار..

وهي جميلة، وكان يمكن لمن يجلس إليها أن ترتاح أعصابه لجمالها.. كان يمكن أن تكون بيننا ملكة نتزلف إليها ونسعى كي تمنحنا ابتسامة تضفي علينا من هدوئها هدوءًا، ومن فتنتها معجبين تأمرهم فتطاع، وتختار من بينهم فيلبي النداء.. ولكن هذه الحدة في النقاش، وهذا الحقد الذي كان يصبغ حديثها بالسواد، وهذا التعصب الأعمى لمبدئها إلى حد لا تحترم معه رأيًا آخر ولا تسمح لرأي آخر أن يقف بجانب رأيها.. كل هذا شوّه جمالها، وجعلنا نتلمس طريق الفرار منها لنريح رؤوسنا من صراخها.

قلت لها، إنه يكفي أن أجلس إليها مرة لأؤمن بأن الشيوعية جريمة.. جريمة ضرب أفضى إلى الموت.. فقد ضرب كارل ماركس رأسها بكتبه حتى قتلها.. قتل فيها روح السماحة والود والعطف والرحمة.. قتل فيها المرأة التي خلقها الله لتنشر السعادة في طريق البشرية، وتلهم الرؤوس الجافة روعة الإيمان وتمسح بيدها الرقيقة آلام المكافحين، وتمدهم بذخيرة من جمال الحياة يكافحون من أجلها.. ولكن كارل ماركس - غفر الله له - قتل فيها كل ذلك وأحالها إلى كتلة من الأعصاب المسممة تتمايل في قسوة عربيدة على دقات كتبه ومنشوراته!..

قلت لها إن بعض النساء يركبهن العفاريت، ولكنهن تطورن مع «المودة» فأصبحن يفضلن أن يركبهن كارل ماركس.. والعفاريت أرحم من كارل ماركس، لأنها لم تكن تركب النساء إلا بمعدل مرة أو مرتين في السنة وتقام لها في كل مرة حفلة زار، أما كارل ماركس، الجن الأحمر، فيركب الآنسة «التقدمية» بصفة مستمرة. وأصبح لزامًا أن تستمر معه حفلات الزار.. وهي التي يسمونها «الجمعيات الشيوعية»!

وصرخت في وجهي واتهمتني بأني رجعي وأني من أنصار نظام الحريم وأني لا أؤمن إلا بشيء واحد هو: «أن من حق الرجل أن يتزوج أربع نساء»!

وقالت إنه يكفي الشيوعية فخرًا أن خلقت جيلًا من النساء يفهم ما هو نظام الطبقات، وما هي الفاشية والرأسمالية، وما هو نظام الاستغلال الاقتصادي... إلخ.

وقلت لها إني لا أريد أن أدخل بيتي لأستريح فتناقشني زوجتي في قانون الضرائب التصاعدية وجنايته على الحركة الشيوعية، ولا أن تقرأ لي خطبة ألقاها ستالين.. إنما أريد حديثًا مريحًا هادئًا وليكن فارغًا، حتى يغسل رأسي مما علق به من جهد بذلته طول يومي..

قالت:

- ثق أنك لن تجد فتاة شيوعية تتزوجك، لأنك لا تستحقها ما دمت لست شيوعيّا..

قلت:

- حتى لو كنت شيوعيّا فإني لا أقبل زوجة تجرعت نفس السم الذي شربته، ولا أريد أن أدخل يومًا إليها فأجدها باكية ويدها على خدها، فإذا سألتها «مالك؟!» أجابت من دمعها: «مادرتش تيتو النهار ده شتم ستالين.. شوف الخاين المغرور، بأه بعد ده كله..».

لا أريد هذه الزوجة، فبيتي يجب أن يكون دنيا خاصة بي، لا يدخلها تيتو ولا ستالين ولا النقراشي ولا مصطفى النحاس.. دنيا قائمة بذاتها، أنا وحدي زعيمها، ووزيرها وشعبها وخادمها، دنيا أستريح فيها من الدنيا، ولا يشاركني فيها أحد لا بشخصه ولا برأيه ولا بمبادئه، وثقي أني في بيتي لا أتحدث في السياسة ولا في الاقتصاد ولا حتى في الصحافة، إنما أتحدث حديث خيال، حديثًا لا يمكن أن تتصوري أن يدور بين البشر، لأنه حديث ملائكة يعيشون في السماء، حديث اثنين يعيشان في جزيرة عزلاء لا تدري عن العالم شيئًا، ولا يدري عنها العالم شيئًا، جزيرة سماؤها حب وأرضها حب ونهارها حب وليلها حب، وليس لها سيد تتوجه له بالشكر إلا الله.. والحب لا يمكن أن يدخل بيوت الشيوعيات، لأن بيوتهن ليست دنيا خاصة بهن، بل هي مفتحة على العالم كله، ويدخل الحقد على المجتمع ملء أبوابها ونوافذها وينصب عليها من السماء وينبع من أرضها!

قلت لها كل ذلك وتركتها تصرخ ورائي قائلة:

«أيها الأناني... إن لك بيتًا، والباقون.. أليس من حقهم أن تكون لهم بيوت!!».

* * *